

العلاقة بين العروبة والإسلام

تحليل نص " عن العروبة والإسلام "

سيف الدين عبد الفناح

استاذ في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

في إطار هذا البحث يحسن لنا أن نكتف مداخل متنوعة وذلك لفهم وتحليل ذلك الكتاب الذي هو رؤية لتصوير العلاقة بين عنصري ثنائية مهمة ، كوحدة من الثنائيات التي ظل الفكر العربي والإسلامي يتعامل معها باعتبارها علاقة أقرب إلى التناقض والتنافي أكثر مما تشير إلى الارتباط والتضاييف وعلاقات التراحم بين المفهومين .

وفي هذا المقام علينا أن نجتمع بين وحدات تحليل متعددة تشكل بدورها مقدمة ضرورية لفهم النص. ومن هنا يعتبر النص وحدة التحليل الأساسية والأولية من دون أن نهمل كيف تكون الفكرة المسيطرة على الكتاب، وحدة تحليل تحرك التوجه إلى ذاكرة هذه العلاقة وتوجهها وإشكالاتها المختلفة.

والمفكر أيضاً وحدة تحليل بما يمثله من تطور في أنساق الفكر، فلا يمكننا إهمال تلك المساهمات لعصمت سيف الدولة التي شهدت تطوراً وتطويراً في الأفكار ونسبتها ضمن نسقه الفكري، حتى يمكن اعتبار دراسة "العروبة والإسلام" ضمن ظاهرة "التحول" الفكري، وهي ظاهرة بدت تشهد تجليات متعددة بعد النكسة العربية التي تمثلت في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

النص في هذا البحث يشكل المجال الأساسي للتحليل و هو بعنوانه يحدد النطاق الفكري الذي يتمثل في قضية العلاقة بين العروبة والإسلام ، ومن ثم فهو يستدعي رؤى أخرى في هذا المقام..

- استدعاء الذاكرة والتوجهات المختلفة حيال هذه العلاقة.

- استدعاء تستلزمه ظاهرة التحول الفكري: كما سيرد بيانه (عصمت سيف الدولة ، طارق البشري، حامد ربيع) .

أما المفكر فهو يمثل حالة التحول الفكري من خلال التطور الحادث في نمط التأليف ونسق الأفكار . دراسة المفكر في ذاته ومن داخل فكره عملية مهمة ، ألا يمكن إتقانها إلا باستدعاء بعض كتاباته الأخرى ما يعبر عن الاستمرارية والتغير في نسق أفكاره، والذي تعتبر كتاباته عن العروبة والإسلام علامة فاصلة، وبداية في صياغة مذهبه الأساسي في القومية ومذهبه القومي في الإسلام على حد تعبيره .

ومن هنا فإننا سنقدم هذا النص عن العروبة والإسلام باعتباره نصاً حضارياً بما يعنيه ذلك من معانٍ، فليس معنى النص الحضاري هو التعامل التراثي الذي يشكل واحداً من أهم أنماط دراسة "النص الحضاري" ، فلماذا الوصف الذي نعتبر على أساس منه أن كتاباً عن العروبة والإسلام "نص حضاري" ؟ .

إن النص الحضاري تقع أهميته من خلال ما يعالجه من قضايا تؤثر في تأصيل وصياغة الرؤية حول جملة القضايا التي تسهم في البناء الحضاري، ووضوح الرؤية القاعدة الأساسية لحزمة القضايا التي تسهم في تحديد الرؤية الكلية "للمفاهيم الحضارية" الأساسية الكبرى، والرؤية الواعية "للمفاهيم العلاقات" أمر مهم في تمثل العلاقة بين عناصر الثنائيات ومنها لا شك ثنائية "العروبة والإسلام" . ولا شك في أن هذه الرؤية الإدراكية تمثل المقدمة للوعي بمشكلات العمارة الحضارية ، والقدرة على تسكين هذه القضايا ضمن معيار العلاقات في ما بين عناصرها وأشكالها ومنهجها .

والنص الحضاري هنا لا يكون حضارياً بقدمه ، ولكن يكون حضارياً بفكره ومنهجه وموضوعه ، ومن هنا فإنه لا يهمل عناصر ذاكرة حضارية تعين في وضوح التصور ووعي العلاقة ، سواء كان ذلك على مستوى "الخبرة المفاهيمية" أو "النماذج التاريخية" ، وهو لايهمل الغاية في دراسة هذه القضية وموضعها من عموم البنية الحضارية .

والنص الحضاري لا يكفي في تحليله التحليل اللغوي ، بل هو أبعد من ذلك بكثير، لرؤية النص ضمن سياقاته الحضارية (الفكرية والعملية)، و تحريك النص ضمن واقعه الفكري والتاريخي (ذاكرة النص)، وتحريك النص إلى واقعا (قراءة التفعيل) ، ضمن إمكانات النص وما يقدمه من قيمة مضافة فاعلة، في تقويم الواقع وحالته الفكرية وأشكال الممارسة فيه .

ومن هنا وباعتبار نص عصمت سيف الدولة عن العروبة والإسلام نصاً حضارياً فإن ذلك لا بد من أن يترك آثاره في وصف النص ومعرفة خرائطه الأساسية، فضلاً عما يتركه من آثار في مناهج (النظر والتعامل والتناول) للنص.

ضمن هذا المسار لا بد من أن يشرع البحث في تقديم ثلاث من القراءات المتكاملة للنص: القراءة العالمية، والقراءة الجامعة، والمقارنة، والقراءة الفاعلة المتفاعلة.

أولاً: القراءة العالمية في النص "عن العروبة والإسلام"

القراءة العالمية للنص تعني التعلم من النص حتى يصير القارئ عالماً به (سماته الأساسية ومفاصله الفكرية، وبنيته الكلية، وأهدافه القريبة والبعيدة)، كما تعني الدخول مع النص في حالة معايشة تجعل كل الأطراف ضمن حالة اتصالية، ودورة اتصالية كاملة.

النص كرسالة اتصالية تفاعلية بين العناصر المختلفة والمتنوعة عملية يجب رصدها ، وبخاصة لو كان النص يعالج قضية نظن أن النقاش حولها لم يحسم وإن بدت تسير مساراته في طريق الوعي وتأسيس بنية فكرية داعمة للعلاقات بين العروبة والإسلام، وتصحيح عناصر الخلل في إطار حوار "التعارف" المؤسس لعلاقة ناهضة ودافعة للعلاقة: فكراً وبنياً وممارسة.

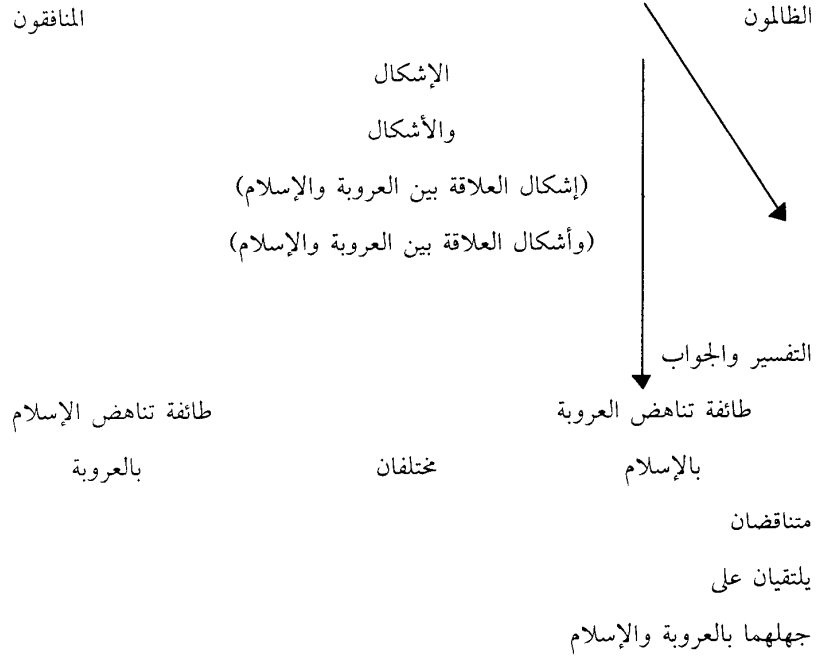
تشتمل هذه القراءة العالمية على جملة أو إن شئت الدقة حزمة أو مصفوفة أو منظومة من القراءات الفرعية التي تكون في مجموعها أقصى درجات الكفاءة والكفاية في التعرف على مضمون ومكنون النص وحركة أفكاره، والإمكانات التي يحملها النص من أفكار وسياقات وقضايا ومفاهيم وحجج وغير ذلك من أمور.

القراءة العالمية هي قراءة أو قراءات متكاملة يتعلم منها القارئ من النص، حتى يصير به عالماً، وتتكون من العناصر التالية :

- الخريطة الكلية لقراءة النص.
- البناء المفهومي: قراءة في عالم مفاهيم النص: نموذجاً ومنهجاً .
- النماذج المفاهيمية في خريطتين: مفهوم الأمة، ومفهوم العلمانية.
- العبارات المرجعية في نص "عن العروبة والإسلام".
- أنساق الحجج وتحليل النص.
- شبكة الإسنادات المرجعية وتحليل النص.
- المسكوت عنه وفيه في نص "عن العروبة والإسلام".

١ - الخريطة الكلية الإجمالية للنص (عن العروبة والإسلام)^(٧)

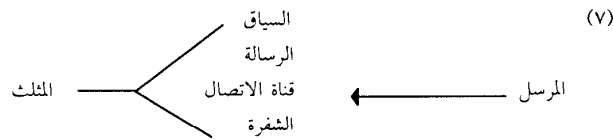
العلاقة بين العروبة والإسلام^(٨)



المذهب الإسلامي في القومية

والمذهب القومي في الإسلام

(رؤية عصمت سيف الدولة للثنائيات المتراحة لا المتصارعة)



هذه خريطة إجمالية للأفكار الأساسية في نص عن الإسلام والعروبة لعصمت سيف الدولة، والخرائط التي تمثل تفصيل طوبوغرافيا النص، وهي مهمة لفهم تفاصيل الأفكار وما يرتبط بعناصر القراءة العامة. (٨) انظر في هذه الخريطة الكلية: سيف الدولة، عن العروبة والإسلام، ص ١٠ وما بعدها.

٢- البناء المفهومي: قراءة في عالم مفاهيم النص:

نموذجاً ومنهجاً

في إطار التعرف على الخريطة الكلية للنص، فإن البناء المفهومي يقع في مرتبة مهمة ضمن هذه القراءة العالمية بالنص والتعرف على خريطته الكلية . والمفاهيم هنا تمثل في نص عصمت سيف الدولة "عائلة" ذات علائق ووشائج، أو شجرة ذات جذر وساق و فروع وثمر، وهي بهذا الاعتبار تشكل منظومة النص المفاهيمية . فهناك مفاهيم التأسيس الموضحة للعلاقة، وهناك المفاهيم المرتبطة بها والخدمة لها، وهناك مفاهيم تشكل (مكونات العلاقة بعناصرها وباستدعاءاتها)، وهناك المفاهيم والكلمات المفتاحية، وكذا المفاهيم المقارنة، والمفاهيم التصنيفية. ومفهوم " العروبة والإسلام "، من المفاهيم العلاقية التي شكلت في وقت من الأوقات إحدى مواد العقلية السجالية والاقنتالية مما يمكن تسميته بمفاهيم النكد الثقافي والنكد الحضاري، لا في ذاتها ولكن في تصويرها المتنافي للعلاقة والمتناقضة في الجوهر كما رأت بعض التوجهات، بدلاً من رؤيتها متكاملة متكافئة متساندة، حتى وإن كانت متميزة، فإن التمايز يحرك دراسة كلية لعلاقات الانفصال وكذا علاقات الاتصال، فضلاً عن علاقات التداخل والتشابك. إنها أمور تحرك البحث المنهجي في مفاهيم العلاقات الكثيرة التي تطفو في حياتنا الفكرية والثقافية ما يتطلب النظر بعين الاعتبار في دراسات مستقلة لمجمل الخريطة المفاهيمية وعناصرها وعلاقاتها ووظائفها وأدوارها .

وقد وردت المفاهيم المقارنة في سياقات فئات مفاهيم التأسيس ، والمفاهيم المفتاحية والمفاهيم المرتبطة والمساندة مثل : الدين والعلمانية ، القومية والدين، التقدم والتخلف، الظالمون والمنافقون، الخلافة والدولة.

إن فهم الخريطة المفاهيمية للنص لا يكون كاملاً إلا بالتعرف على منهجية بناء المفاهيم كما يراها صاحب النص، وبخاصة حينما يكون المفكر من طراز سيف الدولة احتلت قضية المنهجية في فكره مكانة مهمة قد لا تلغوها مكانة . ففي إطار " جدل الإنسان " الذي اعتبره تطويراً للمنهج الجدلي كان أهتمامه بعالم المفاهيم الذي يجب أن يكون منهج تناوله متسماً بالكلية والعمق والدقة . وهنا قد يمكننا الإحالة ضمن خرائط النص الكلية، لمفهومين مهمين

أولهما: مفهوم الأمة ، وثانيهما مفهوم العلمانية . والمفهومان يحيط بهما فوضى في الإدراك والحمل وفوضى في الاستعمال.

أما عن مفهوم الأمة فقد وجد في اللغة العربية، وله استخدامات قرآنية متعددة، بينما نشأ مفهوم العلمانية في حضارة أخرى (أي أنه منقول من نسق حضاري آخر)، (وهو ترجمة لمعانٍ أجنبية). هذا الفارق الأساسي يشير إلى نموذجين من المفاهيم، إلا أن جوهر طريقة د. عصمت سيف الدولة في التعامل مع المفاهيم غالباً ما كان يحافظ على عناصر أساسية في معالجة المفهوم، وأهم سمات وخطوات ومستويات هذه الطريقة:

أ- البحث في الدواعي المختلفة الدافعة إلى النظر مجدداً في هذين المفهومين.

ب- البحث في أصول وتنسيب المفهومين.

ج- البحث في مآلات المفهومين وتأثيرهما في الواقع.

د- البحث في الإشكالات والأزمات المحيطة باستخدام كلا المفهومين.

هـ- اقتراح عملية بناء تأخذ في اعتبارها:

- الدلالات اللغوية.

- الدلالات وعلاقتها بالمصادر.

- عناصر المفهوم وأهم مستوياته.

- الإدراك الصحيح: آثاره ومآلاته.

- استدعاء مفاهيم أخرى بالنظر إلى هذه المفاهيم باعتبارها مفاهيم منظومة، تستدعي غيرها، ولا تفهم إلا بها.

- التأكيد على إشكالات المفهوم بالنظر إلى تمثيله الفكري في اجتهادات معينة.

- النظر إلى سياقات المفهوم.

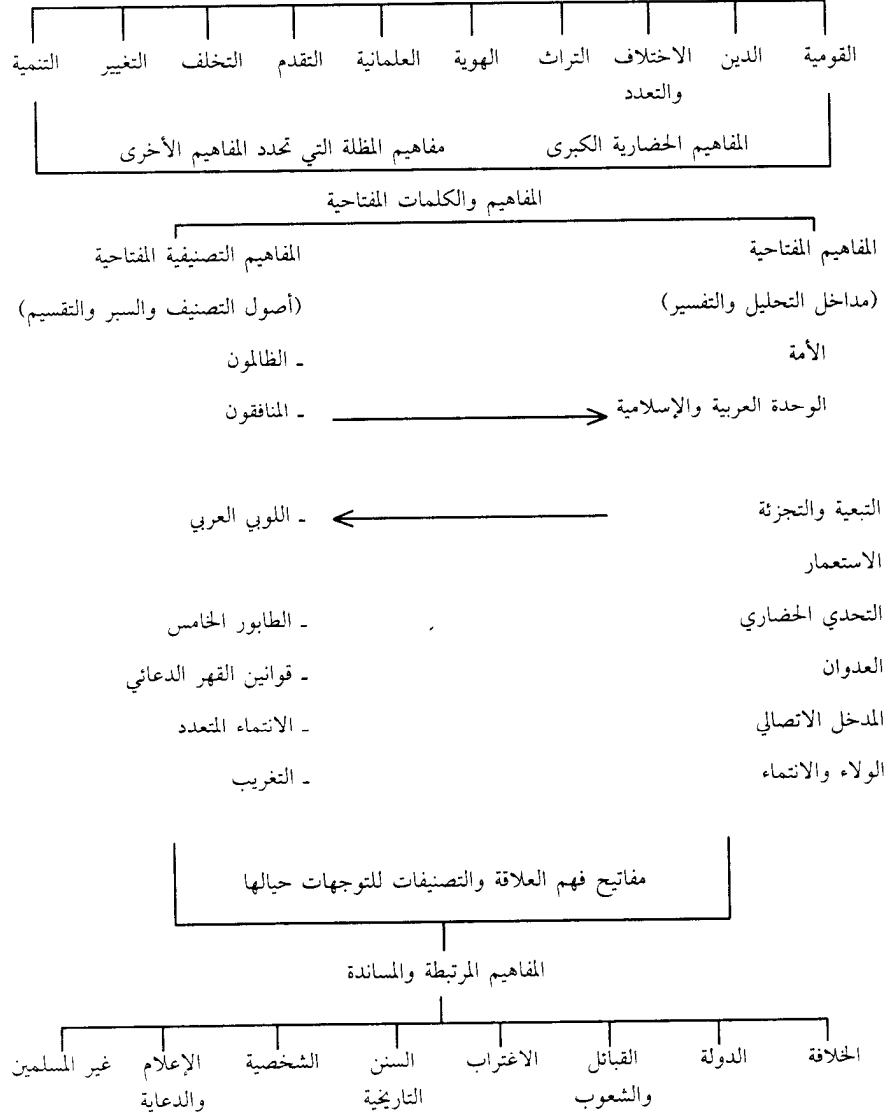
و- كل مفهوم من حيث الدواعي المرتبطة بإعادة النظر فيه مجدداً يحمل طرائق تفرض أسلوب المعالجة والتناول: فإن تمايز المفاهيم وأهم سماتها ، وتسكينها في البنية المعرفية والحضارية، ومراعاة المقام والسياق، كلها أمور تؤكد تميز معالجة كل مفهوم، فإن العام في طرائق بناء المفاهيم لا ينفي بأي حال "خصوصية المفاهيم " وماتركه هذه الخصوصية من آثار في مناهج التعامل والتناول للمفهوم.

ز- إن كل مفهوم في إطار إعادة النظر في بنائه إنما يهدف إلى مقصد بعينه ، يأخذ في الاعتبار ما تتركه المفاهيم من آثار في المجال الفكري وفي المجال التطبيقي المتعلق بالواقع وآثار استخدامه. وهو ما يعني قدرة على :

- تسكين المفهوم ضمن ظواهر تتعلق بالواقع المعيش وتأثيراته فيه.

- ضرورة تحويل المفاهيم من مجرد تصورات وإدراكات، إلى قضايا تجعل عملية تناول المفاهيم أقرب ما تكون إلى التأكيد على مفاهيم نظر تتعلق ليس بالمفهوم فحسب، بل الواقع الذي يفعل ويشغل فيه.

مفهوم العلاقة العروبة والإسلام مفاهيم التأسيس



=بعدها و ٢١٥ وما بعدها. فرحلة مفهوم العلمانية تشير إلى ضرورة تبصر منهج النظر الكامن فيه والظواهر في الوطن العربي، وقارن في هذا المقام: طارق البشري، ماهية المعاصرة (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٦)، ص ٤٨ وما بعدها.

٣- النماذج المفاهيمية في خريطين: مفهوم الأمة ومفهوم العلمانية

٣ - النماذج المفاهيمية في خريطين: مفهوم الأمة ومفهوم العلمانية

أ - مفهوم الأمة^(١٥)

مدخل لتحديد طبيعة العلاقة

بين العروبة والإسلام

مفهوم الأمة مفهوم مفتاحي

هل العلاقة تنازعية لمفهوم الأمة؟



التعدد

التحدث عن الأمم بصيغة الجمع في ١٣ آية	سنة
إشارة إلى التعدد / التمييز / الاختلاف	ومشيئة إلهية
	← الوحدة
	الاختلاف
	التعدد

التعدد في المكان (التعدد في الزمان الواحد)	إطلاق الأمة على الجماعة	التعدد في الزمان
(أمم متعددة تواجدت في مكان واحد (سغينة نوح))	المميزة: صالحة أو غير صالحة	(الأمم متعددة وسيبقى التعدد قائماً)
أمم متعددة توزعت في الأرض		(الأمم المتعددة على آجال الزمان)
(أمم متميزة بعلاقة قريبي فتعددت الأمم بتعدد الفروع)		(لكل أمة أجل معلوم)
(أمة متميزة بموقف واحد أو حالة واحدة)		(تعدد الأمم بتعدد الرسالات والمناسك)

كل العرب منتمون إلى أمة عربية واحدة (وحدة اللغة/ الأرض والحياة المشتركة، والتاريخ)، ولا ينكر المسلم والإسلام عليها ذلك (بالمعنى القرآني للأمة).

المسلمون أمة (كانوا وما يزالون وسيبقون) أمة متميزة بالانتماء الديني إلى الإسلام. * الأغلبية الساحقة من الشعب العربي جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية التي ينتمي إليها كل المسلمين في الأرض. بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وأممهم ودولهم وأوطانهم (عضوية أي مسلم بالأمة).

كل من الانتماءين قائم، ولكن كلاً منهما ذو مضمون مختلف، الأمة كما تتميز بوحدة العلاقة القومية (لا تشابه) ولا تعارض ولا تناقض مع الأمة التي تتميز بوحدة العلاقة الدينية.

لا تتناقض	لا تتعارض	لا تتشابه
الأمة الإسلامية	مع	الأمة العربية
	الخلط والتوحيد	
	أحدث إشكالاً	
	بين الانتماء للدين	
	والانتماء القومي	
زرع الصهيونية	الشعب العربي	الحروب الصليبية
	النتيجة النهائية	

ليس لدى الشعب العربي سبب للتشابه أو التعارض أو التناقض

بين العروبة والإسلام

العلاقة العضوية بين الإسلام والعروبة

الأوهام

الجهل بالعروبة
- مجرد أمة وعدم التعرف
على ما يميز الأمة العربية

ضرورات

التمييز

لا الامتياز

الجهل بالإسلام

- ميزة الإسلام كدين عن

الأديان الأخرى

بين الأمم

انتفاء العلم بما بين الإسلام خاصة والأمة

العربية خاصة من علاقة خاصة لا مثيل لها

بين دين وأمة

ضرورة متابعة تطور الدين على مستوى علاقته بتطور التكوين الاجتماعي

من العشيرة إلى القبيلة إلى الشعب، لنصل إلى حيث نرى علاقة الدين بالأمة

أو علاقة الإسلام بالعروبة

- اكتمال الدين انتماء كما اكتمل مضموناً
- الإسلام رسالة إلى الناس كافة.
- مفتوحاً لانتماء الناس جميعاً بطرف النظر عن
- انتماءاتهم الأسرية أو العشائرية أو القبلية أو
- الشعوبية أو القومية.
- وحدة البشر في الدين في كل مكان وفي كل
- زمان لتتسق مع وحدة الكون.
- الأمة العربية دون الأمم جميعاً هي أمة
- الإسلام.
- لا نعني بذلك أن الإسلام دين الأمة العربية
- خاصة بل نعني أن الأمة العربية هي الأمة التي
- أوجدتها الإسلام ولم تكن موجودة من قبله.
- أنها تتميز بهذا عن بقية الأمم ولو كانت أمماً
- مسلمة.

ب - العلمانية مفهوم مفتاحي (١٦)
نفاق العلمانية

أكثر أشكال النفاق إقناعاً وخطورة: في مناهضة الإسلام بالعروبة

أكثر إقناعاً لأنه:	مكامن الخطورة:
مصوغ في قوالب فكرية جادة أو تبدو كذلك في البحث عن حلول صحيحة لمشكلات الحياة الواقعية.	أشكال واضحة العطف على العروبة. غامضة الموقف من الإسلام. عش النفاق:
تقدم إلى الناس في الوطن العربي ما يفرهم بالطريق إلى مستقبل أفضل. والمستقبل الأفضل يستدعي القبول.	ترشيح طرق أفضل للحياة والصمت عن الإسلام.
لا تعرض الإسلام إنكاراً وقبولاً، وهو ما قد يرضي عامة المسلمين.	إيهام الشعب العربي بالثقة في إمكان: تحقيق مستقبل أفضل. بدون حاجة إلى الإسلام.

النموذج العلماني مثال لذلك

كلمة العلمانية من	كلمة رائجة	من لوازم	على مستوى الدعاية يكون
أكثر الكلمات غموضاً	رواجاً كبيراً	(الاستعباط)	استعمالها من لوازم
	في الأدب	للتهرب من	الاستعراض في الإيجاء بأنهم
	السياسي	المشكلات	عالمون

عملية مثالية في دراسة واحد من المفاهيم المصنوعة

وترتبط بوسط من التلبس والغموض

# دلالة كلمة العلمانية للتعبير عن نزعة الفصل بين الدين والدولة. # معارضة أو مناقضة للدين. # شيوع وهم التناقض لأنها كانت ثمرة التيار الذي عرف في أوروبا باسم حركة التنوير/ تطورت إلى ثورة سياسية ضد استبداد الكنيسة بالسلطة فكانت العلمانية.	أزمة	الاستعمال	أزمة الوضع أزمة الحمل والإدراك أزمة الترجمة	الإيجاء بصلتها الوثيقة بالعلم حتى لتكاد تنبئ بأنها مشتقة منه ليست كذلك/ لا علاقة بين العلمانية نزعة وبين العلم منهاجاً
				# الأصل اللاتيني للترجمة العربية ينفي مثل هذه الصلة.

نموذج للعمل مع مفهوم العلمانية باعتبار: سيرة (تاريخ) مسيرة (تطور) سيرورة (تحول).

معالجة المنظومة المستدعاة: من المفاهيم والمصادر (رجال الدين وكيف نشأ مفهوم

العلمانية)، الوقوف عند مفهوم رجال الدين والتعرف على معانيه.

* رجال الدين في أوروبا ليسوا العلماء بالدين، بل هم رجال الكنيسة المؤسسة، يستمدون من قوة سلطانها قوة سلطانهم (اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) (ما للدولة/ وما للكنيسة) أي الفصل بين نشاط الكنيسة وبين نشاط الدولة. هذا هو المدلول الصحيح لمبدأ "العلمانية".

* تطور المبدأ العلماني ضمن الصراع الذي صار حول الحدود بين سلطة الكنيسة وسلطة "الدولة".

* تطور المبدأ العلماني ضمن مرحلة الإصلاح الديني.

* الثورة الفرنسية ورد الكنيسة إلى حدها من المبدأ العلماني ما لله لله .

* وبقي أن ترد الدولة إلى حدها من المبدأ ذاته ما لقيصر لقيصر.

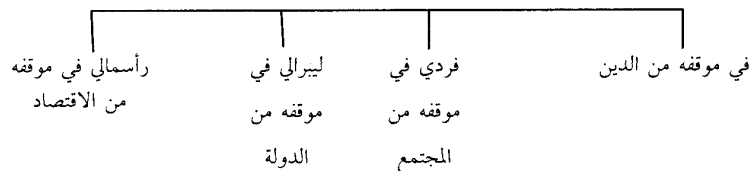
استدعاء مفهوم الدولة (نموذج الدولة التي أنشأتها الثورة الفرنسية) نموذج عُم في أغلب أقطار العالم، استدعاء مفهومي "السلطة" و"السيادة"، "نظرية الحق الإلهي"، سيادة الشعب والأمة.

* مخادعة الناس، قبول الناس لنظامهم، إقناعهم بأن الإسلام دين " الله " وليس نظاماً للحياة في " الوطن " ، عن طريق دعوة فكرية يقوم بها " دعاة " من العرب والمسلمين .

* حبذا لو كان الداعية من علماء الدين الإسلامي ليكون إماماً للمذهب العلماني .

العلمانية الشاملة

إقامة نظام علماني



- العلمانية ليست دعوة إلى الكفر بالدين .
- هي نظام شامل متكامل للحياة والدين .
- كان محصلة لعوامل (نفسية/ثقافية/تاريخية/حضارية) سادت أوروبا على مدى نحو سبعة قرون .
- العلمانية ترتبط بوسطها (مجال العلمانية) - ماذا عن العلمانية والإسلام؟ - وكيف تكون العلمانية نفاقاً
- للعلمانية نظام للإسلام نظام لا يتفقان في أكثر من وجه .
- المشروعية للنظام يعني القبول العام .
- أغلب الشعب العربي مسلم .

القبول للعلمانية لا يتحقق إلا بالإبقاء على الإسلام

ديناً «الله» استبعاده نظاماً للحياة في الوطن الذي هو «للجميع»

الغرض من ذلك أن تخلو الحياة العربية لنظام لا يتفق في أكثر من وجه مع الإسلام كنظام

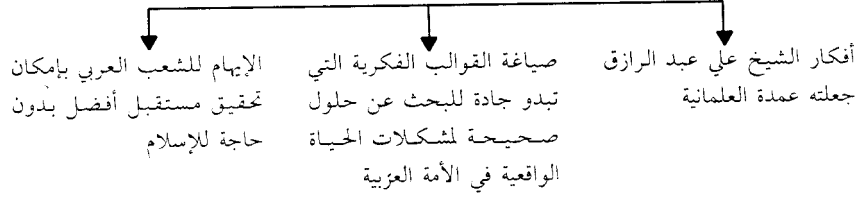
هذا هو النفاق

(طبقاً لمعايير الصدق والكذب في مخاطبة شعب عربي مسلم)
هدف العلمانية : استبعاد الإسلام كنظام للحياة حتى يفسح مكانه لنظامها .

قصة الإسلام وأصول الحكم للشيخ علي عبد الرازق

الحجج والنماذج الفكرية
(نموذج لإعمال المدخل الحججي لبناء المفاهيم،
ونقداً لأفكار كمقدمة لتقديم رؤية وموقف)

فكرة الكتاب الأساسية التي أراد بثها: الإسلام شرع تبليغي وليس شرعاً تطبيقياً
فكرة مترتبة على ذلك أن ما جاء به الإسلام من شرائع وقواعد آداب غير ملزم للمسلمين في ممارسة حياتهم



• الحلول ممكنة التحقيق/اقتراحها بمناهضة الإسلام تصبح مستحيلة/مناهضة الإسلام فكراً باسم مستقبل عربي أفضل ليست في واقع الأمر سوى مناهضة للمستقبل العربي الأفضل عملاً.

٤ - العبارات المرجعية في نص "عن العروبة والإسلام"

أما عن العبارات المرجعية، فهي تشكل مفاتيح فهم النص من خلال مقومات أساسية تعتبر المرجع بالنسبة لكاتب النص، هي أقرب ما تكون إلى الفروض الكلية التي يستند إليها، والمسلمات التأسيسية التي يؤسس عليها النص، والنص في مجمله يكون شارحاً لها أو مفصلاً، وهي تتسم بكل عناصر التأكيد سواء بتكرارها داخل النص في أكثر من موضع، أو بالتأكيد على معانيها ومغزاها، ومن أهم تلك العبارات المرجعية:

* العبارة المرجعية المفتاحية والتي هي مدار النص ومدار شرحه وبيانه:

المذهب الإسلامي في القومية والمذهب القومي في الإسلام.

(وهي تلخص خطة البحث ومنهجه، وطريقته في فهم طبيعة العلاقة بين الإسلام والعروبة).

(عبارة مرجعية: مدار النص)

- أما العبارات المرجعية في مقدمات تكيف هذه العلاقة فمثلها:

الشعب العربي معتدى عليه (وصف الحال مقدمة لرصد الإشكال)

- مناهضة الإسلام باسم العروبة، ومناهضة العروبة باسم الإسلام (وهي مقدمة ثانية لوصف حال بعض توجهات الرؤية في هذه العلاقة).

- نفاق العلمانية أكثر أشكال النفاق إتقاناً وخطورة في مناهضة الإسلام بالعروبة. (وهي مقدمة فرعية ثالثة لوصف توجهات الرؤية حيال هذه العلاقة).

- ضمن هذه العبارات ما صيغت في شكل تساؤل مرجعي من مثل: لماذا فشل المسلمون إذن في مواصلة تقدمهم الاجتماعي؟!

- قوانين القهر الدعائي: عبارة مرجعية تخص المقدمات المتعلقة بالآليات والأساليب في إساءة إدراك وفهم و كذلك تشويه طبيعة العلاقة بين العروبة والإسلام .

- الشخصية والانتماء الحضاري : عبارة مرجعية أخرى تخص المقدمات المتعلقة بالآليات والأساليب في أهمية بناء الشخصية في عملية الانتماء الحضاري، ودور ذلك في تصحيح طبيعة العلاقة بين العروبة والإسلام.

(في هذا الإطار يحاول عصمت سيف الدولة الربط بين قوانين القهر الدعائي كآليات سلبية، والشخصية والانتماء الحضاري كآليات إيجابية في إطار الارتباط بين المدخل الاتصالي ومدخل الشخصية الحضارية وفهم جوهر العلاقة بين العروبة والإسلام ورد ذلك إلى الفهم الأصيل والصحيح).

شكلت تلك المقدمات السابقة عبارات مرجعية في ما أسماه سيف الدولة الاستجاب الذي مارسه مع مقولات العلاقة. وكانت مقدمات الاستجاب لازمة "للجواب " أو النتائج .

وقد شكلت عبارته "من الاستجاب إلى الجواب " عبارة مرجعية على طريقة في التعامل مع قضية العلاقة بين العروبة والإسلام.

وقد تزاملت تلك العبارة مع عبارة أخرى حينما اختتم كتابه "بجوهر البيان ونهاية الجواب " .

وبرزت العبارة المرجعية الختامية "ختام النص وختامه " بشكل يرتب نتائج على المقدمات.

- إن هؤلاء الذين يناهضون العروبة باسم الإسلام:

لا يجاهدون في سبيل الإسلام، وإنما يستعملون اسمه نداء ليستمع إليهم شعب ربه حضارته على أن يلبي نداءه .

- وان هؤلاء الذين يناهضون الإسلام باسم العروبة:

لا يناضلون في سبيل الوطن العربي، وإنما يستعملون اسمه ادعاء ليجتمع إليهم شعب تحمله حضارته على أن يجتمع حول وحدته وانتمائه.

وفي هذا المقام يمكن تصنيف العبارات المرجعية كما سبق عرضها في الشكل التالي:

العبارات المرجعية		
العبارات المرجعية	العبارات المرجعية	العبارات المرجعية
" خاتمة وخاتم النص "	" المقدمات "	" مدار النص " جوهر الاشكال والحال
جوهر حل الاشكال وتغيير الحال	" استجاب المقدمات "	

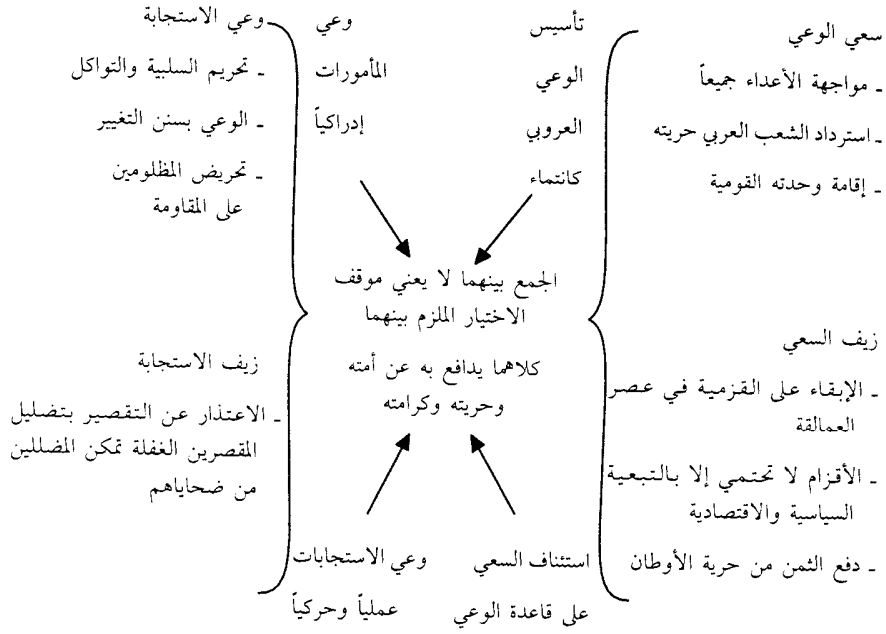
العبارات المرجعية : النموذج والتحليل

الشعب العربي شعب معتدى عليه من خارجه اغتصاباً واحتلالاً ، وهيمنة وتبعية ، ومعتدى عليه من داخله قهراً وظلماً ، وإذلالاً واستغلالاً .

الشعب العربي معتدى عليه (وصف الحال) (ورصد الاشكال)	
من داخله	من خارجه
اذلال استغلال القهر الظلم	اغتصاب إذلال هيمنة تبعية
(الأثر)	(الأثر)

ضرورة الاستجابات المتكاملة والمتكافئة بين العروبة والاسلام

<p>الاستجابات الملزمة للاسلام</p> <p>الأمر بقتال المعتدين</p> <p>من سكت عن الظلم فقد ظلم نفسه</p> <p>قبل الهجرة المقاومة بكل حيلة وبكل سبيل</p>	<p>الاستجابات الملزمة للعروبة</p> <p>وعي العروبة انتماء</p> <p>الدفاع عن الذات دفعا للخطر</p> <p>رد الفعل حتى لا تكون فاعلة</p> <p>وعي التناقض الاساسي بين واقع الانسان العربي وحاجته</p> <p>وعي العدوان</p>
---	--



أنساق الحجج وتحليل النص

في إطار استكمال عناصر القراءة العالمية التي تحاول أن تتعلم من النص حتى تصير به عالمة، فإن خريطة المفاهيم وخريطة الحجج، العبارات المرجعية لا تكتمل إلا بالبحث في أنساق الحجج التي استخدمها النص إضافة إلى شبكة إسناداته المرجعية، وهما في هذا النص يرتبطان ولا يفترقان، وبخاصة إذا ما عرفنا أن أنساق الحجج المستخدمة أشارت بشكل مباشر إلى مصادر استقاء هذه الحجج المختلفة المستخدمة.

تبدو لنا الحجة الرئيسية التي انطلق منها سيف الدولة هي أن العلاقة بين الإسلام والعروبة ليست علاقة تناقض أو تناف أو تصارع أو إحلال أو سجال ، بل هي علاقة تمايز للتكامل والتكافل والتساند والتوافق والتقاطع والتداخل.

هذه الحجة الرئيسية أعقبها تشغيل الحجج الفرعية ضمن أنساق مختلفة ومهمة بحيث جعل ما قدمه من حجج (مشتقة، فرعية، مولدة) ضمن منظومة لعرض رؤيته الكلية التي تمثلت في حجته الرئيسية ضمن مسارات متساندة ومتكاملة ومتراتبة إلى حد كبير :

- الحجج المتعلقة بتحرير المشكلة وتحقيق مناطها، بما يسهم في بناء الإدراك على نحو يعتقد سيف الدولة أنه الصواب.

- توظيف العبارات المرجعية في البناء الحججي وباعتبارها مقدمات مهمة في عملية " الاستجواب " .

- الحجج اللغوية أساسية في التعامل مع عالم المفاهيم، وضرورات البحث الدلالي في هذا المقام.

- البحث في السياقات الحضارية والتاريخية حجة أساسية لا يمكن تخطيها عند النظر في عالم المفاهيم.

- الحجج المتعلقة بالطريقة الجدلية والحوارية بما يولد حججاً إضافية يجب أن تنظم ضمن نسق معين.

- الحجج التصنيفية وقدرات سيف الدولة في الاستخدامات الرمزية لها (الظالمون/ المنافقون).

- الحجج التي تدور في سياق الضرورات المنطقية، وسياق الضرورات الواقعية وعدم الاكتفاء بأحدهما، والربط بين السياقين يقوي الحجة لديه ويعظم فاعليتها.

- الحجج المتعلقة بتوظيف النماذج الفكرية في عملية النقد (أصول الحكم والشيخ علي عبد الرازق) ونقد العلمانية.

- الحجج المتعلقة بتوظيف النماذج الفكرية- التاريخية في إطار البحث في جوهر العلاقة بين العروبة والإسلام، وأهم نموذج هنا تلك الدراسة التحليلية لدستور المدينة على عهد النبي (ص) عند هجرته إلى المدينة، وميثاق تأسيس الدولة- المدينة.

- الحجج المتعلقة بتوظيف النماذج التاريخية مثل الحديث عن:

تجربة الولايات المتحدة الأمريكية، وتجربة اتحاد الجمهوريات السوفيياتية في التعامل مع الكيانات القومية والإسلامية .

- تفعيل سياق تعاضد الحجج من حيث المجالات المعرفية المختلفة: اللغة، التاريخ، الفكر، الإعلام والاتصال، علم النفس، التحليل الثقافي... الخ .

٥- شبكة الإسنادات المرجعية وتحليل النص

تحيلنا النقطة الأخيرة على الشبكة المرجعية التي استند إليها سيف الدولة في بناء نصه سواء تعلقت بالإسنادات، أو بالرؤى الكلية.

<p>الرؤى الكلية والفكرية</p> <p>المرجعية الفكرية تكمن في " الأمة " وفعاليتها (الأمة العربية - الأمة الاسلامية)</p> <p>الجماعة المرجعية : التيار الاساسي وضرورة البحث في المشاكل الحقيقية والاساسية لا القضايا الوهمية والمفتعلة .</p> <p>الواقع كمرجعية : ضرورات اعتبار الواقع تأثير الأفكار في عالم الواقع ، والوعي ، في الإدراك مقدمة للتعامل الصحيح مع الواقع . تقويم الواقع الفكري والسياسي والحضاري . مرجعية الواقع لا تعني الرضوخ للأمر الواقع في صورته الشائنة ، ولكن فهم الواقع مقدمة لعملية اصلاحه فكرياً وثقافياً وحضارياً .</p>	<p>الاسنادات المرجعية</p> <p>التاريخ والنماذج التاريخية</p> <p>الفكر والنماذج الفكرية</p> <p>تاريخ الافكار ومسيرتها</p> <p>الفكر المعاصر واشكالاته</p> <p>الفكر الغربي وعالم المفاهيم</p> <p>اللغة والبحث الدلالي</p> <p>التاريخ الغربي وسياق فهم الخبرات</p> <p>ندرة الاشارات المرجعية ، كتابتها في متن الكتاب . ربما لطبيعة نشرها في سلسلة الثقافة القومية التي تهتم بعملية التنقيف ، وعدم الوقوف عند الشروط الشكلية في عملية التوثيق .</p>
--	---

٦- المسكوت عنه وفيه في نص " عن العروبة والإسلام "

فماذا عن المسكوت عنه في هذا النص؟

في كثير من الرؤى التوفيقية التي تحاول رأب الصدع ضمن الرؤى الصراعية المنتشرة، أو في معظمها، يبدو اللجوء إلى آلية المسكوت عنه، كحالة من غض الطرف عن كل ما يعكر صفو المسار التوفيقى في إطار إغفال بعض القضايا التي تتحدى علاقة مثل العروبة والإسلام ، فهو يثبت كل ما يوفق بينهما بينما يحبس كل ما يعبر عن التناقض بينهما. (المسكوت عنه الحابس) .

وقد يبدو للبعض حينما يتحدث عصمت سيف الدولة عن العروبة والإسلام أنه يسير ضمن هذا المسار التوفيقى، ولكنه في واقع الأمر يخفي التلفيق والتورية والتعمية والإغفال ضمن مشروعه البحثى، فهو يبدأ ليس بالديباجة الاحتفالية الممهدة للنص ، أو المقدمة للدخول للنص، بل إنه يرى أن العلاقة وما واجهها من تشويه في الوعي والادراك، وفي الحركة والسعي، ومن افتعال في بعض الأحيان، وفي انفعال في كثير منها ، وفي اغفال الجوهرى فيها ، وفي اجتهاد البعض في الفصل بينهما تتطلب كشف الزيف عن بعض الحجج والمقالات ، ومناقشة الكثير من المسكوت عنه حينما عولج هذا الموضوع لدى آخرين .

إنه يبدأ مداخله فيصدر عنوانه بأنه " بيان " ، والبيان يعني الكشف والوضوح والافصاح، وقوة الحجة والبرهان، والقدرة على البلاغ ، وايصال المعنى والمغزى بأجلى ما يكون من مفردات اللغة وتركيباته .

ومن المهم التعرف هنا على طبيعة هذه التصنيفات التي استخدمها عصمت سيف الدولة وعلاقتها بالمسكوت عنه. إن استخدامه لمصطلحات مثل "الظالمين " الشامل لكل صنوف ظلم الإسلاميين للعروبة، وكذلك مصطلح مثل "المنافقين " الشامل لكل صنوف ظلم القوميين للإسلام، له من الدلالات المهمة في المسكوت عنه في هذا النص الدافق بالأفكار والقضايا. وهو التزام من الكاتب ألا يدخل في إطار ما يكتب ضمن هاتين الفئتين وهو ناقد لهما وأساليبيهما في التفكير والتأثير.

فالظلم في هذا الباب طغيان على الحقائق والخروج بها عن جادتها ومجاوزة العدل في مناهج التفكير إلى الظلم. ومن هنا كانت ممارسة سيف الدولة حركة دائمة ودائبة للكشف عن مصادر هذا الظلم التفكيرى وآثاره اللازمة عنه، الظالمة لحقيقة الأمر في العلاقة بين الإسلام

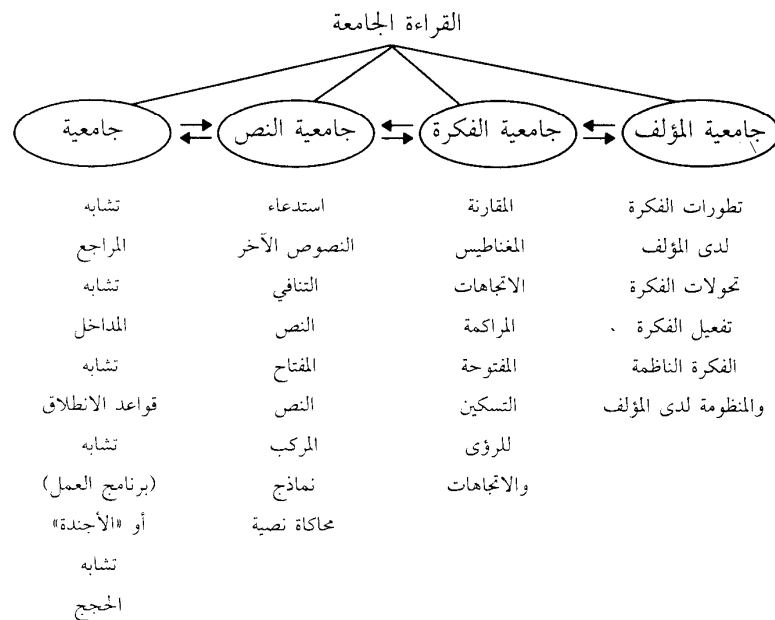
والعروبة، فأصر على "كشف المستور" من اعوجاج مناهج النظر ومناهج التفكير ومناهج التحليل والتفسير ضمن مدخل الظالمين في فهم هذه العلاقة . ونظرة على الخرائط المختلفة للنص توضح ذلك من غير عنت شديد، فإن منهجه في هذا السياق كشف المسكوت عنه وعدم إقراره على ظلمه الطاعي أو المتجاوز لحد العدل والاستقامة.

أما الحديث عن "المنافقين" فهو حديث عن المسكوت عنه في أخطر صورته وهو المسكوت عنه نفاقاً، والذي يتخذ أنماطاً مختلفة فرعية في هذا المقام : من "خط الأوراق"، والتخفي في إطار التقية الظالمة بقصد الإيهام (الإظهار خلاف الإضمار) و (القول بخلاف الاعتقاد) و (القول بخلاف الفعل) والافتراء بالكذب، ويفسدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً . هذه الأنماط والآليات للمسكوت الثقافي يفرض البحث عنه في كثير من مقولات مدخل المنافقين وتعامل سيف الدولة معه، وما جعل هدفه أن يقر المسكوت عنه على حاله في هذه القضية، أو يوافق بضع مسائل في هذه القضية ، بل حرك قضية العلاقة بين " الاسلام والعروبة " من دائرة المسكوت عنه ، وفيه ، وعليه ، إلى دائرة البيان ، مسلطاً عليه كل ضوء كاشف يؤصل معنى البيان كعلاقة اتصالية مرتبطة بحركة الانسان ووعيه الاتصالي " (الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان) .

وتعلم سيف الدولة كيف يخرج عن حد القراءة الطاغية فتكبت وتند ، أو القراءة الواهنة فتستر وتتخفى وتناقض . إنها قراءة " البيان " حينما صدر كتابه بهذا المعنى : الوضح ، والمكاشفة ، والشفافية والمسؤولية ، والابلاغ ، والايصال والاتصال ، والانداز والتحذير ، والتحفيز والاستنفار . ومن ثم لا يعتبر فينص سيف الدولة أن كل ما لم يقل فيه مسكوت عنه بهذا الاعتبار ، وذلك في إطار ما صاغه من أهداف ، وما اتجه به من اقتراب لمعالجة وتناول موضوع القضية " الاسلام والعروبة " . فإن ما أثبتته كان من مجهر اهتمامه ، وما تركه لم يكن في دائرة اهتمامه .

ثانياً : القراءة الجامعة : حول مداخل دراسة العلاقة بين العروبة والإسلام

هناك مداخل عدة للقراءة الجامعة وأشكال متنوعة للتعبير عنها ، فمنها القراءة المقارنة ، ومنها القراءة المترابطة للنص والقضية المتعلقة به ، ومنها القراءة الجامعة القارئة للمفكر ونصوصه المتعددة كنص جامع ، خاصة عندما يكون المفكر له رؤية فكرية واحدة في الأصل متنوعة الاداء والاشكال ، وقد يحدث ذلك في أطر القراءة المقارنة الداخلية بين أفكار لذات المؤلف وأخرى تحول إليها . ومنها القراءة المفتوحة للنص لا المغلقة عليه أو المقتصرة على تصنيف عناصره . ويمكن تصنيف هذه القراءات الجامعة في الشكل التالي :



نستطيع القول إن كل النصوص لا تصلح فيها كل تلك القراءات إما لطبيعة تأليفها أو رؤية المؤلف نفسه ، ولكن من المهم أن نؤكد صلاحية معظم هذه المداخل لدراسة النص المركزي الذي نحن بصدده وهو عن " الاسلام والعروبة لعصمت سيف الدولة " ، إلا أننا في حقيقة الأمر لو مارسنا كل جانب من هذه العناصر في القراءات الجامعة لطلنا بنا المقام ، ولقمنا بعمل بحوث أخرى . إلا أن الهدف من هذا البحث أن يحرك ضرورة ان يولد برنامج عمل لدراسة أفكاره ، وقد يؤدي بنا الى الجمع بين هذه القراءات الجامعة ، بما يتيح ممارسة بحثية مجملتها الاساليب ومحدودة الهدف والمقصد .

في سياق هذه القراءة الجامعة قد يكفي أن نرصد عناصر التوجهات والمداخل المختلفة في قضية الاسلام والعروبة في ما يمكن تسميته " قراءة التكامل والتكافل بين المداخل المختلفة " .

يحدد كل باحث في هذه القضية زاوية النظر ومجهر الاهتمام ، وتتفاعل الزاوية مع المجهر لأن كلاً منهما يتفاعل محدداً للآخر ، وتتنوع زوايا النظر بحكم تنوع الأهداف والمقاصد والتخصصات الأكاديمية والاهتمامات الفكرية والثقافية . إلا أن الاختلاف ليس دائماً حركة نحو التنازع أو التناقض أو التنافي أو الصراع ، فهذا مما قد يوحي به النظر الأول وبإيدي الرأي . إلا ان الخروج من الاختلاف إلى الائتلاف يتم في سياق رؤية تكاملية وتكافلية " فاختلاف المسالك راحة للمسالك " كما يقال في (قواعد التصوف) ، كما أنه " لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقصد ، بل قد يكون المقصد متحداً مع اختلاف مسالكه " ، واختلاف النسب قد يكون لاختلاف الحقائق وقد يكون لاختلاف المراتب في الحقيقة الواحدة " ، فقد تتعدد المستويات وتتعدد الطرائق ، هذا التنوع هو المؤدي في غالب أحواله الى تكامل الرؤى وتكافلها .

أ- تكامل المداخل وتشكيل خريطة القراءة الجامعة

نستطيع القول إن مداخل العلاقة بين العروبة والإسلام قد تعددت وتنوعت ولكنها، رغم ذلك تكافلت وتساندت لتسهم في بناء رؤية كلية تتعدد دواعيها، وتتراكم إسناداتها وحججها، وتتكافل مستوياتها، وهذه المداخل والإسنادات والحجج والمستويات تترافق جميعاً مع ما يقدمه عصمت سيف الدولة في رؤية لهذه العلاقة ، فاستحقت بذلك- من خلال القراءة الجامعة- أن تشكل مدخلاً مركباً .

فإذا اعتبرنا سيف الدولة مدخلنا الأساسي والتأسيسي الذي يحرك استدعاء المداخل الأخرى، ولو تأملنا الخاصية المغناطيسية في مدخل سيف الدولة ، من حيث الارتباط بين مستوى "التظير" ومستوى "الواقع" ، فإن هذه الخاصية المغناطيسية تشكل قابلية الالتقاط والاستدعاء لمداخل أخرى . وفي سياق هذه الجاذبية المغناطيسية سنرى : المدخل التاريخي الرابط بين الإسلام والعروبة تطوراً وذاكرة استخدمه أكثر من اتجاه في تأصيل هذه العلاقة، وهناك المدخل الجغرافي المعبر عن الدوائر الجغرافية والمكانية التي تتلبس بالمذهب أو العقيدة في

العروبة والإسلام، نرى ذلك لدى جمال حمدان ، ونظرية الدوائر ليست في هذا المقام دوائر مكانية ومن ثم غالباً ما ساندتها أبعاد فكرية في إطار النظر الحضاري لفكرة الدوائر لدى أحمد صدقي الدجاني في إطار وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية في عالم مترابط، ورؤية تاريخية استقبالية، مؤمنة ملمة جامعة لمستقبل علاقة أكيدة وسوية بين الإسلام والعروبة توصل تكافل الدوائر وتكاملها، والإطار الثقافي لدوائر الهوية وعالم الأفكار والمفاهيم المرتبطة بها لدى مالك بن نبي في كومونث إسلامي، والدائرة العربية بل والدائرة الأفروآسيوية، وها هو البشري يؤصل ويسهم في تأسيس نظرية الدوائر المتداخلة والمتراخمة والمتكافلة والمتكاملة يؤكد فيها العلاقة بين جماعة وطنية وأمة عربية وإسلامية، هذا كله تستدعيه فكرة عصمت سيف الدولة في دوائر الانتماء المتعدد . وبرزت هذه الاجتهادات الفكرية، النظرية والواقعية، في سياق منظورات اعتمدت الفكرة وتنوعت في أدائها فتضافرت الحجج وتراكمت بحيث مثلت هذه الرؤية نوعاً من "التوتر المعنوي" المفضي إلى يقين العلاقة التكاملية والتكافلية والتفاعلية بين العروبة والإسلام، وكأنها البذرة التي تعهدت بالري والسقي ورعاها كل منهم من جانب، فتمكنت في الأرض شجرة، وأنت أكلها كل حين . وهذا التنوع في الدوائر لم يكن ليمنع مداخل أخرى لتأصيل تلك العلاقة ورعايتها، فبدا للبعض أن المدخل المفاهيمي لا يقل أهمية وإسهاماً في تأصيل تلك العلاقة عن مدخل الدوائر المتعددة المتكاملة والمتنوعة، فكان المدخل في تأصيل مفهوم الأمة الجامع للإسلام وللعروبة معاً . فهذا محمد المبارك وسيف الدولة والبشري وحازم نسيبة حينما يتحدث عن القومية العربية، وهذا مدخل متميز آخر إذ ينطلق من التأسيس المفاهيمي إلى التراث والذاكرة الحضارية، وتشكيل الهوية وتأصيل معانيها الجامعة والتمايزة في آن، يتبناه الأستاذ الدكتور حامد عبد الله ربيع حينما يؤكد على أمته والعالم ، ويرفع الشعار يجعله مدوياً ومتحدياً : " سوف أظل عربياً " ، في إطار يحدث قدراً من التغذية الراجعة والمتبادلة ضمن علاقات حميمية تحرك كل أشكال التفعيل في ما بين عناصرها. وسنجد آخرين يتحركون صوب العلاقة الأكيدة بين العروبة والإسلام من خلال الضرورات الواقعية في الربط بينهما في إطار مدخل استراتيجي تفرضه عناصر الواقع الداعية والجغرافيا الدافعة والتاريخ الداعم والقدرات المتاحة الكامنة منها، والظاهرة الاستراتيجية تمثل رافعة لمدخل تكاملي ينهض بقوة كيان العروبة في كيان الإسلام، وقوة حضور الإسلام في كيات العروبة، أو مدخل يؤكد على النظر

الحضاري الاستراتيجي البعيد المدى حينما يؤكد على وحدة التحديات، وتكامل الاستجابات واستشراف عناصر مستقبل تتوحد منابعه وتتكامل وتتساند غاياته. إن التحديات التي تنوعت وتشابهت في آن، وفي كل مرة تحرك تحدياً بعينه من استقلال بعد استعمار، وإنماء وعمران بعد استعمار وتخلف، وتوحد متكامل من بعد تجزئة، وتمايز من بعد تبعية، وعولمة كاسحة تقتضي التكامل والتكافل في إطار فاعلية الحضور والتأثير والتمكين وإلا فالغياب والتواري والضعف من وهن إلى وهن . وهذا المدخل ليس كلمات نصيحة أو بلاغة في أسلوب إنما يؤصله ويمكن له في كل تلك الأحوال مهما تبدلت في أشكال تحدياتها وأنماط استجاباتها فإنها تؤكد الثابت أو ما هو أقرب له، ثابت الضرورة الواقعية الدافعة للارتباط الفاعل والواعي في إطار ما أسمى بالمجال الحيوي - لدى الدكتور عبد الشفيق عيسى - العالم الإسلامي ، المجال الحيوي للعروبة وحركتها وعلاقتها ، وهو مجال نهضتها وتكاملها في سياق وحدة المستقبل وربما وحدة المصير ، انها المداخل التي تتعاضد ، وفق نظر حضاري واستراتيجي راسخ .

وضمن هذا المدخل الضروري الواقعي في ثابت متواتر وداع ملجئ ، لتفعيل هذه العلاقة يأتي جهد متميز يقوم عليهمركز دراسات الوحدة العربية في إطار عمل علمي عملي اتخذ شكل تأسيس الحوار ، واستحق هذا المدخل تسمية المدخل الحواري في تأسيس العلاقة وتأسيسها . وهذا جهد تبلور في مدخل يستدعي كل العلاقات المتداخلة حينما تتصارع ، فإن أمر العروبة والاسلام والعلاقة بينهما ليس أمراً تنظيرياً ، أو أمراً واقعياً فحسب ، بل أكثر من ذلك . هو امر يحرك وحدات مهمة للتحليل (العالم العربي - العالم الإسلامي) ، في مواجهة وحدات تحليل أخرى صعدت في الآونة الخطيرة مثل (الشرق اوسطية والمتوسطية ... الخ) ، وصرنا بين وحدات صاعدة متعلقة ، ووحدات أخرى تنزوي وتتوارى وربما تهتمش ، وربما خذلت من جانب الباحثين . وصارت الأمور وسارت في طريق يحاول فصل عناصر علاقة العروبة والاسلام وهي بطبيعتها ملتزمة ، وتؤكد عناصر تتواتر ، بادية وظاهرة ، إلا أنها تخرجها من تواتر اليقين ، إلى تواتر الشك وعدم الثقة ، بينما علاقات أخرى أريد لها أن تتعلق ، تحل وتطرد وتحتل وتستقر وتمكن. وإذا كانت العلاقة الأولى (علاقة العروبة والاسلام) تصب في عافية الكيان الداخلي ، فإن هذه الجديدة الصاعدة تصب في عافية الكيان الخارجي . وإذا كانت الأولى تحركها الدواعي الداخلية فإن الأخرى تتسلل تحركها دوافع خارجية على معرفة أن الداخل والخارج يتفاعلان ، ولكن الأمر بما غلب عليه وصفاً ورصداً

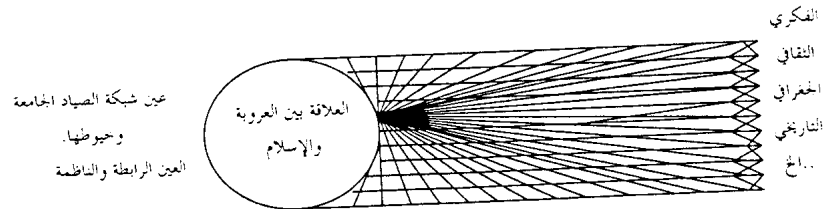
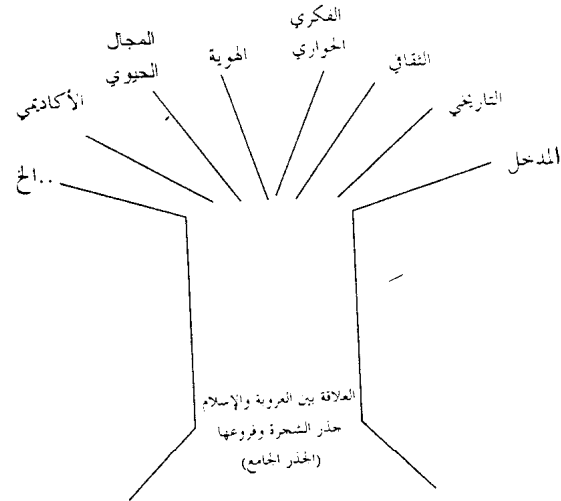
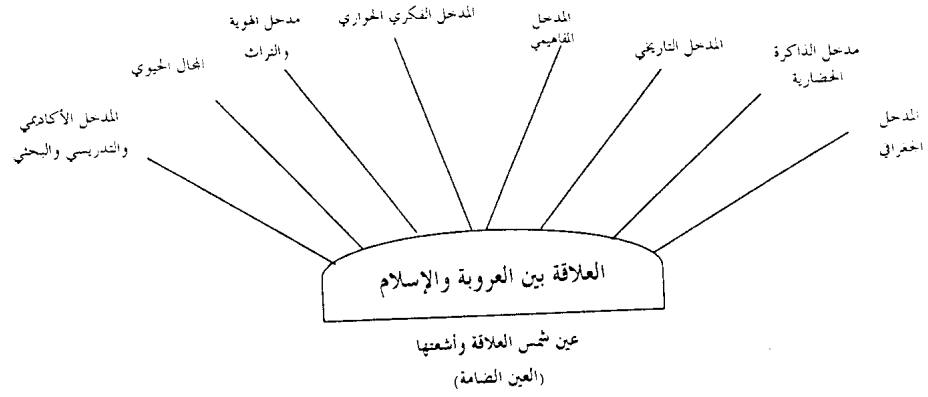
، ومن ثم استحقت الأولى وصف وحدات التحليل المخدولة ، واستحقت الثانية وصفها كوحداث احلال صاعدة متعملة . وبلن هذا وذاك ىربط بلن الاسلام والعروبة مدخل تدربسى أكادىمى ، تدربس النظم العربىة فى سىاقات تستدعى الكىان الاجتماعى الحضارى العربى كمستوى ووحدة للتحلىل ، وذاكرة الكىان الحضارىة والاتصالىة ، وما ىتعلق بذلك من مستلزماة تحلىله وفهم قدراته الكامنة ، تقدمه كنموذج الدكتورة منى أبو الفضل ، وهى تشبىر كما نشبىر معها إلى أن الواقع الاكادىمى ىحتاج منا لرؤىة تكون أكثر عمقاً ودقة فى النظر الى ظواهر تتعلق بالنظم العربىة ، ومدخل دستورى ىحاول رؤىة العلاقة بلن العربىة والاسلام فى الدساتىر العربىة ضمن دوائر الانتماء قدمه الدكتور جورج جبور . وأخىراً ولبس آخرأ ىقع المدخل الرمزى والمرتبب بالصراع الجامع مع إسراىل والصهوىنة ، وهو ىحرك معنى الجامعىة فى العلاقة بلن العربىة والاسلام ، لىؤكد ان هذا الصراع إن وقع على أرض العرب إلا أن رموزه الإسلامىة تؤكد مصبىرىته وحضارىته ، فهل القدس وعاء فلسطين أم فلسطين وعاء للقدس؟! ، ظل هذا التساؤل ىحرك أصول علاقة مهمة بلن العربىة والاسلام ، وأخذ التعلبىف الدبىنى بمقولات رمزىة ، ىستدعى ومن غير عناء كببىر رموزاً إسلامىة حافزة على المواجهة للمقولات الصهوىنة المتسربلة تورائياً .

إنها قراءة جامعة مقارنة تؤكد معنى التكافل والتكامل فى المداخل تؤصل لعلاقة العربىة والاسلام ، وتؤسس لها وتمكن لرؤىة فاعلة لهذه العلاقة فى النظر وعلى أرض الواقع . وهى علاقة ترصدھا محاولات سلبىة فى الربط مما ىجعل النظر الاىجابى من ناحىتنا من أهم مداخل تمكبن العلاقة بلن العربىة والاسلام ، العلاقة التارىخىة بلن العرب والاسلام من جهة والغرب من جهة أخرى ضمن رابطة واجهت حروباً مشركة تارة على أرض العرب وتارة على أرض مسلمبن بىر عرب . وموازاة هذه العلاقة ببو تشوىه الصورة القومىة والشخصىة فى رؤىة بعض دوائر الغرب لصورة العربىة وصورة المسلم فى إطار عملىة ممتدة من التشوىه والتضخم . بدأت هذه الكتابات على نحو أكثر انتشاراً بعد حرب حزبران /بونىو عام ١٩٦٧ التى لم تكن نكسة للعروبة ، بل نكسة لعالم المسلمبن بضىاع بببب المقدس واحتلاله . إن عالم الاحداث تارىخاً وخصوصاً ، هو عالم بىجمع وىجمع بلن الاسلام والعروبة ، إنه تكامل التحدى ، وتكامل الظلم (للعروبة والاسلام) الذى ىقتضى تكامل الوعى وتكامل الاستجابة .

هكذا تكون القراءة الجامعة في التنظير ، والقراءة الجامعة في الواقع ، حتى إن لم يقتنع البعض بواحد منها بادرناه بغيره بحيث لا يستطيع أحد أن يتخطاها أو يخطئها ، إنها القراءة الجامعة المؤسسة لأصول الوعي وجهود السعي لتحرك تفعيل هذه العلاقة في الإدراك وفي الأفعال ، في المواقف وفي السياسات والعلاقات . وهي مقدمة للقراءة المتفاعلة والقراءة الفاعلة .

غاية الأمر أن هذه الاجتهادات المتكاملة والمتكافئة للمداخل المختلفة في رؤية الاسلام والعروبة نجمع بينها في ضوء فكرة " الاجتهاد الجامع " لدى الشعراني في ميزانه لأهميتها ليس فقط في الاجتهادات الشرعية ، ولكن كذلك بالاجتهادات الفكرية ، فالجامعية فيها هي أصل الدافعية والفاعلية .

تصورات الشعراي لائتلاف الاجتهادات
رغم اختلافاتها وإمكانات تعدية ذلك
في تصور العلاقة المتكاملة والمتكافئة
بين مداخل العلاقة بين العروبة والإسلام



ب- التحولات الفكرية وقراءات في نص الإسلام والعروبة وآلية الاستدعاء

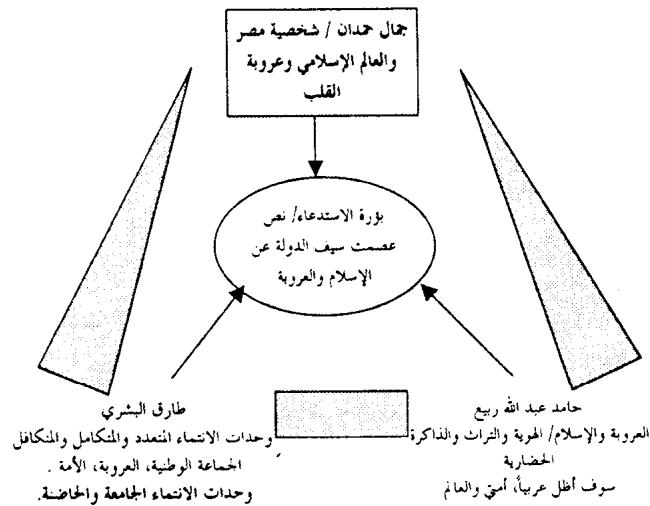
برزت في حياتنا الثقافية والفكرية ظاهرة تستحق التأمل والرصد والتحليل والتفسير والتقييم ، ألا وهي ظاهرة التحولات الفكرية بين اتجاهات التصنيف المختلفة التي استقر عليها العرف الثقافي العربي . وهذه الظاهرة لم تلق الاهتمام الكافي على رغم أهميتها ، مع أن النماذج التي تمثلها في ازدياد مستمر يلفت الانتباه ويستتفر النظر العلمي .

بيد أن الخطاب حول هذه الظاهرة ظل يخلد إلى المنهج السجالي ويركن إلى الطريقة القتالية والاقبتالية ، وفي ظل فتن عدة شهدتها المنطقة العربية (نكسة حزيران / يونيو ١٩٦٧ ، وحرب الخليج الأولى والثانية ، وتسويات السلام مع اسرائيل وتحول الممكن العربي إلى مستحيل ، وتحول الحلم الاسرائيلي إلى إمكان وتمكين) ، جعلت كثيراً من المفكرين العرب يراجعون موقفهم وأفكارهم وطرائق تفكيرهم ومناهج نظرهم .

وهنا اختلطت ظواهر التحول في ظل حالة من (الأدلجة) ، فرفاق الأمس في الفكرة أصبحوا خصوم اليوم ، وصل الأمر إلى حد الاقتتال في لغة اتهامية واضحة وعالية النبرة ، فهذا اتهام بالانتهازية الفكرية ، أو تنويه إلى من يأكلون على كل الموائد الفكرية ، وهذا المفكر يلبس لكل زمن لبوسه ويتدثر بالأفكار ويغيرها كما يغير الثياب ، وهذا قد اهتدى من بعد كفر ، وآمن من بعد ضلال ، وهذه توبات فكرية أتت على ألسنة مفكرين ، وبعضهم لم يتب .. وغاية الأمر فقد تحرك السجال ضمن المعايير والاتهام . واختلطت ظواهر التحول الأصيل في البحث عن الجامع الحضاري الذي لا يفرق ، في صور شبهها البعض بالحروب الأهلية الفكرية ، برضوخ شديد لدى البعض ممن يمكن تسميتهم " بالواقعية الجديدة " على الطريقة العربية والتي مفاد دستورها الاساسي أن من الواجب علينا أن نعرف الواقع ونتعامل معه بمقتضياته وإملاءاته ، وأن الواقع ليس في مصلحتنا ، ومصلحتنا في التعامل معه على علته ، وأصبحت الواقعية فيه لا " وقوعاً " في برائن ذلك الواقع مهما كان مهيناً أو ظالماً . وبدا لدى البعض أن الحديث عن معادلات الواقع الشائهة ، وضرورات تغييرها ، والبحث في آليات تقويمها عمل الحالمين ، تعبر عن مثالية الخيال ، قاطعاً عليهم الأمل من كل طريق وفي كل طريق بشعار الواقعية الجديدة " كن واقعياً والتحق بمسيرة اليائسين " فاختلط التحول الأصيل الناهض بالتحول التابع الناكص . فبين متحول إلى الكتلة الحضارية الاساسية لأنه

وجد نفسه يضيع بطرائق الاقتتال الداخلي عناصر مواجهة كل صنوف التحديات في داخل أو خارج ، وبين متحول اتهم نفسه في إطار النداء بالاستقلال والوحدة والنهضة بأنه كان مثالياً أو إن شئت الدقة خيالياً غير واقعي أو وقوعي ، وان مناهضة التبعية والتجزئة والتخلف ليست على هذا النحو ، بل هي في الاعتراف بالأمر الواقع أياً كانت سلبياته وعوراته .

ربما كل هذه الأمور والخواطر كانت وراء " آلية الاستدعاء " كآلية منهجية ، وقد تفسر لماذا استحضرت كلا من جمال حمدان وحامد ربيع والبشري بمناسبة تحليل نص عن العروبة والاسلام لعصمت سيف الدولة واختلفت رؤاهم واثلت مقاصدهم وتعددت مجاهر اهتماماتهم ، فشهد هؤلاء تحولات فكرية على مستوى أو آخر ويقدر أو آخر ، ولكن اجتمعت مقاصدهم في العمارة الفكرية الراسخة الجامعة الرافعة الناهضة .



جامعية الاستدعاء بين التحول الفكري ومقتضيات تأصيل وتفعيل وتمكين الكتلة الحضارية(*)

(*) كان من الممكن أن يكون الاستدعاء كاملاً بدراسة موازية في نصوص الثلاثة المستدعين بمناسبة نص سيف الدولة إلا أننا وجدنا أن هذا الاستدعاء الكامل أو التفصيلي، قد يؤدي إلى طول البحث فآثرنا الإشارة إلى هذا المستوى من القراءة الجامعة من دون تفصيل، والأمر لا يزال يستحق دراسة مستقلة.

ثالثاً: تفاعل القراءة والقراءة الفاعلة

إن أي قراءة لا بد أن تكون قراءة هادفة، وهي بهذا يجب أن تتفاعل مع مرجعيتها ومع واقعها ومع الأغراض القاصدة لها . فإذا كانت القراءة العالمية تهدف إلى التعرف على النص كينونة ومكوناً ، بنية وبيئة، عناصر وسياًقاً ، فإن القراءة الجامعة تقصد تحقيق مستوى من مستويات فاعلية القراءة، بالجمع بين نصوص أو مفكرين، الجامع بينها وبينهم و الناظم لنماذج متنوعة منها هو القضية موضع البحث أو التحليل . هاتان القراءتان (العالمية والجامعة) تعبر عن قراءات في سياق النص ، أما القراءة الفاعلة فهي تتوجه بالنص إلى الواقع المعيش و المعاصر أي انها تعمل خارج سياق النص ، وهي ترى أن فاعلية النصوص والقراءة الفاعلة المرتبطة بها تكمن في أصالة أفكارها وقدرتها على أن ترتبط بالواقع المعاصر ، وهي قراءة تستثمر مقدرات النص ، وتعتبر منها ، فتؤصل حقائق قرائتي الاستثمار (توظيفاً وتفعيلاً) ، والاعتبار (تعلماً من الواقع وتدبيراً وتدبيراً فيه) ، وأنه في المقابل يوجد النص الذي لا يملك فاعلية داخله ، أو مدخل للقراءة يتمثل في قراءة الإهدار ، إهدار النص رغم إمكانات فاعليته وتفعيله .

القراءة الفاعلة من الواجب تمييزها من القراءتين العالمية والجامعة ، انها ترتبط برؤية القاريء وإعادة إنتاج النص مجدداً وتأثيراته في الواقع بكل عناصره ، ولكن وهي مرتبطة برؤية القاريء يجب الا تنفصل عن النص الأصلي ، كما انه من الواجب ألا تحمل النص أكثر من طاقته أو تتعسف بقراءته باسم القراءة الفاعلة .

١- القراءة المنهجية للفكر العربي وقضاياها : القراءة المنهجية لخطاب الفكر العربي من أهم اسباب تقديم الحلول للإشكالات التي ترتبط به ، فالمنهج هنا كالعقد بين أطراف الرسالة الاتصالية ، وأصول العقد تنفي كل ما يؤدي فيه من إكراه أو غش أو تدليس ، وتقصي عناصر الانفعال والافتعال والاغفال والانفصال ، وفي هذا المقام فإن النص يشير في ظاهره ومكونه إلى ضرورة البحث في :

أ- أفكار تتسم بالجامعية، والدافعية والفاعلية للكيان الحضاري العربي، تسهم في معماره على أسس رصينة ومتينة، ومن ذلك منهج النظر إلى ما يمكن تسميته بوحدة الانتماء المتعدد من دون أن تتنافى أو تتناقض.

ب- ضرورة التعامل مع أفكار تؤدي إلى الفرقة والعودة وذهاب الفاعلية والتأثير وهو نمط ساد في الفكر العربي ويكمن في سياقات عقلية سجالية اقتتالية، تدلف إلى القضايا في سياق التنافي لا التفاعل، ترتبط بكل ظواهر " النكد الثقافي " ضمن ثنائيات ظلت فترة طويلة من الزمن تتخذ سمة التنافي والاقتتال وقدمت الأنساق الفكرية مهلهلة متشردمة من جراء التقاتل. من هذه القضايا "العروبة والإسلام"، "التراث والمعاصرة"، "الوحي والعقل"، " العلم والدين ... الخ.

ج- ضرورة دراسة ظواهر التحول الفكري، كحالات دراسية ترصد أسبابها، وعواملها ومساراتها، وأفقها، ومدى ما تتركه من آثار في كيان التيار الأساسي وكيانوته.

د- التصنيفات ضرورة منهجية وبحثية ودراسية، وتصير شديدة الخطورة عندما تحاول القراءات المختلفة تسييسها وأدلجتها، ومن هنا وجب التحرز في التصنيفات أو تبنيها، إلا في وصف الواقع الفكري، أما تضمينها لأحكام مطلقة قاذحة أو مادحة، والإسراف في ذلك فإنه يؤدي إلى بروز العقلية السجالية في سياق (مستوطنات التصنيف)، ومن هنا يمكن أن نرصد تصنيف "الظالمين" و"المنافقين" : الأول للدلالة على هؤلاء الذين يناهضون العروبة بالإسلام، والثاني للدلالة على هؤلاء الذين يناهضون الإسلام بالعروبة، وفعالية التصنيف تكمن في الإشارة إلى كبر الجرم المرتكب ممن يتخذ هذه المواقف، على الرغم مما تحمله هذه الكلمات التصنيفية من حمولة ثقيلة في الوصف.

ومن ثم فإن الإسراف في استخدامها قد ينقلب من ميزة مهمة إلى عيب يسهم في تأجيج الروح السجالية.

هـ- إن دراسة سيف الدولة تمثل نموذجاً مهماً في دراسة جملة التحديات الحضارية والتأكيد على بعدها الفكري، والعلاقة بين العروبة والإسلام واحدة من هذه التحديات التي يجب

الوقوف عندها وعلى مضامينها الفكرية، حتى يمكن التعرف على سنن وقوانين التغيير فيها وضبط أصول هذه العلاقة ومنهج النظر إليها .

و- إن البحث في مفاهيم العلاقات (العروبة والإسلام) يشير إلى ضرورة الاهتمام بمنطقة عالم المفاهيم، والنظر العلمي إلى تحديدها وضبطها، حتى لا تصيب الفكر العربي أعراض برج بابل في فوضى الاستخدام . ونظن أن كثيراً من القضايا السجالية، يمكن أن تتحول إلى الدائرة البحثية والمنهجية فيما لو حددت المفاهيم بدقة وعمق . وإن بعض المستويات التي عالج بها سيف الدولة عالم المفاهيم تشي بإمكانات مهمة للدخول إلى هذا العالم ، حتى لا نعاني ظاهرة الاجترار الثقافي للإشكالات التي مر عليها زمن طويل قد يفوق القرن.

ز- إذا كانت كثير من الظواهر قد تكونت على نحو عشوائي في سياق الفكر العربي ، تحمل تداخلات عدة ، بحيث يصعب تطبيق معايير عليها، فإن عشوائية تكوين هذه الظواهر لا تعني عشوائية التحليل، وبخاصة في الاقتربات المنهجية من هذه الظواهر. دراسة هذه الظواهر في السياق الفكري والثقافي تتطلب جهداً منهجياً متميزاً يمكن من مواجهة عشوائية الظواهر بقدرات منهجية قادرة على التحليل والتفسير و التقويم.

هذه الأمور وغيرها كثير يمكن أن نقرأها بين سطور هذا النص ضمن القراءة الفاعلة التي تقرأ النص قراءة استثمار (استثمار فاعلياته وقدراته) لا قراءة إهدار، وقراءة اعتبار تقف على مكونات النصر الداعية إلى إعادة النظر في مجمل حياتنا الثقافية والفكرية، واستخدام آليات تعوق عمليات الحوار الواعي، وتمنع وتشل كل معاني الجامعية في هذه الثقافة وكل أصول الدافعية فيها، وكل شروط الفاعلية الحضارية.

٢- في إطار القراءات الفاعلة في مقام تحليل نص سيف الدولة يجب الفطنة في الوسط الأكاديمي إلى صناعة (الأجندة) أو برنامج العمل، وكيف تشكل الأجندة التابعة عناصر طاردة لها، وحيث إن عملية الصناعة تلك تقدم وحدات في ثوب علمي تسمى وحدات "تحليل" ، إلا أنها في الحقيقة وحدات "إحلال" . فبين الوطن العربي كوحدة تحليل، والجماعة الوطنية القومية كوحدة تحليل، والأمة الإسلامية كوحدة تحليل، صنعت الفواصل على نحو يقطع الصلات في ما بينها، ويوهن أسس شبكة علاقاتها. فتغذية كل ما يؤدي إلى عناصر الصراع

في ما بين هذه الوحدات أمر مطلوب، وتوهين العلائق بينها أمر مرغوب، لأنها تمثل قوة
الإمكانية والإمكان والاحتمال. بينما سنرى وحدات تحليل أخرى أو إن شئت الدقة وحدات
"إحلال" صاعدة طارئة قاتلة مثل "الشرق أوسطية"، "الجوار الجغرافي" "إسرائيل- تركيا-
إيران". وبين وحدات التحلي المطرودة والمخذولة معاً (الجماعة الوطنية- الوطن العربي-
العالم الإسلامي) ووحدات الإحلال الطارئة والمراد لها أن تمكن على أرض الواقع تقع أهمية
الدراسة كل مرة للعلاقة بين العروبة والإسلام. وتبدو لنا حدة تصنيفات سيف الدولة
(الظالمون والمنافقون) وحدة الأوصاف لمن يتبنى غير الائتنام والائتلاف في العلاقة أمر
مبرر من هذا الباب ولهذا الغرض. فاستطرق رؤى الواقع، والتوجهات الفكرية والثقافية،
والاتجاهات البحثية والأكاديمية أمر يجب أن نلاحظ أشكاله وآلياته. والاختيارات البحثية
والمنهجية والقضايا المستحقة للحوار ليست بعيدة عما نحن فيه، بل هي أقرب إلى ما أسماه
البشري "رأب الصدع" الحادث في كيان الأمة " في مفكرها ومتفقيها وعلمائها وأكاديميها.

تعقيب

أحمد صدقي الدجاني

هذا حديث عن المفكر العربي الكبير عصمت سيف الدولة وكتابه المتميز عن العروبة والإسلام. وهو يصادف ذكرى مضي أربع سنوات على رحيله يوم ٣٠ / ٣ / ١٩٩٦ عن عمر امتد ثلاثة وسبعين عاماً حافلة.

مناسبة الحديث هذه الندوة الفكرية الحافلة، وغايتها المرجوة أن تكون ذكرى الرجل مناسبة لتدارس القضية الجليلة التي عاش من أجلها وقضى مدافعاً عنها، وأن نخرج من ذلك بحصيلة تسهم في إضاءة الطريق إلى المستقبل العربي، كما جاء في رسالة منسق الندوة الأخ د. محمد عبد الشفيق عيسى الذي رغب إلي المشاركة بتعقيب على بحث قيم أعده الأخ د. سيف الدين عبد الفتاح حلل فيه نص كتاب عن العروبة والإسلام .

وجدت في نفسي بعد أن قرأت بحث أخي سيف الدين عبد الفتاح، وعاودت قراءة كتاب عن العروبة والإسلام أردد ما قلته في أعقاب أول قراءة للكتاب إثر صدوره، وبعد قراءة ثانية متأنية بمناسبة ندوة المعهد: " هذا الكتاب هو " أنشودة " عصمت سيف الدولة التي "غردها" في المرحلة الأخيرة من رحلته الغنية مع الفكر وقضايا أمتنا العربية وعصرنا. ووجدتني أضيف " وتتجلى هذه الحقيقة في هذا البحث القيم الذي حلل فيه سيف الدين عبد الفتاح نص الكتاب، بما قدمه من قراءات ثلاث له ، وما أثبتته من عصارات تضمنها الكتاب، وما أبرزه من تفاعلات بين الأفكار الواردة فيه ."

خطر لي بعد قراءة " تحليل النص " أنه إذا كان النقد الأدبي بمدارسه المختلفة يجعل روعة العمل الأدبي تتكشف وتتلق، فإن للنقد الفكري بمدارسه المختلفة دوراً متميزاً في كشف روعة العمل الفكري وجعلها أكثر تألقاً . وما أحوجنا من ثم إلى العناية به في وقت لا تزال حياتنا الفكرية تشكو من نقص فيه. وهذا ما يدعونا إلى الإشادة بهذه الندوة بعامة وبحث "تحليل النص " الذي يقدم لنا أنموذجاً لمدرسة في النقد الفكري لها خصائصها ومزاياها. ونحن علينا

ولنا في هذا التعقيب أن نخصص جزءاً منه للحديث عنه. أما الجزء الآخر فسنجعله للحديث عن الموضوع نفسه في ضوء البحث، انسجاماً مع مدرستنا التي تنادي بأن يكون التعقيب على الموضوع بعامة مع أخذ الأوراق التي تعالجه بعين الاعتبار. وقد أُلح علي أن استهل بتسجيل ذكرى تتصل به .

أذكر بخاصة مرة لقيت فيها أخانا د. عصمت في خريف عام ١٩٩٤ الموافق عام ١٤١٤ هـ ، حين زرتة في مكتبه بشارع قصر النيل حاملاً معي الدعوة الموجهة إليه للمشاركة في تأسيس المؤتمر القومي الإسلامي وحضور الدورة الأولى في بيروت ، ومتطلعاً إلى الاغتناء بأفكاره حول المؤتمر والمرحلة التي تمر بها أمتنا. وأذكر أن حواراً غنياً دار بيننا حول كتابه عن العروبة والإسلام عبرت فيه عن اعجابي العظيم بالكتاب ، وذكرت أمثلة على جوانب التآلق فيه، واستمعت بإمعان إلى رؤية أخي للمرحلة ، ولاحظت حماسه القوي للقاء التيارين القومي والإسلامي على برنامج عمل لتحقيق المشروع الحضاري العربي بأهدافه الستة تحريراً وتوحيداً أو شورى وديموقراطية وعدلاً وتنمية وتجديداً حضارياً ، وذلك وفاءً بمتطلبات النضال في هذه المرحلة من تاريخ أمتنا. وأذكر أنه بعد أن رحب بالمشاركة أبدى أسفه لأن الموعد المحدد لانعقاد المؤتمر يصادف موعداً التزم به مسبقاً في الخارج، وحملني رسالة للجنة التحضيرية حرصت على إبلاغها متضمنة دعمه القوي وتأييده . وتداعى إلى خاطري وأنا أودعه وقد ظهرت آثار السنين عليه وعليّ ، أول لقاء جمعنا قبل حوالي ثلاثة عقود في القاهرة قبيل نكسة عام ١٩٦٧ . كان ذلك حين حملني تفرغي للعمل العام عند تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى الانتقال للعيش في القاهرة في فترة شهدت حيوية التفاعل الفكري . وما أسرع ما تعرفت على المفكرين من التيار القومي، وشاركت في جلسة تضم عدداً منهم وتنعقد أسبوعياً في شرفة فندق سميراميس بمبناه القديم، وقد صحبني المرحوم عبد الله الريماوي صاحب البيان القومي الثوري .

وهكذا التقيت منهم الراحلين عبد العزيز الأهواني وعبد الكريم أحمد وعصمت سيف الدولة. كما التقيت بأخي د. يحيى الجمل. وفي ذلك الحين تعرفت على مؤلفات كل منهم، وما كتبه عصمت سيف الدولة عن الاشتراكية العربية والديمقراطية وجدل الإنسان. ولم تلبث الأيام أن تتالت حاملة معها تغيرات في عقد السبعينيات واجهت التيار القومي العربي. وأعقبته

الثمانينيات وكنت أحرص كلما لقيت الدكتور عصمت سيف الدولة أن أغتني برؤيته لما يجري وأن أطرح عليه رؤيتي. وكم كانت سعادتي عظيمة حين قرأت كتابه عن العروبة والإسلام إثر صدوره في منتصف الثمانينيات. وبدالي أن هذا المفكر العربي وضع في الكتاب عصارة فكره ، ورؤيته الحضارية ، وبلغ في رحلته الفكرية نقطة الذروة ، واستقرت سفينته بعد أن مخرت عباب الأفكار في ميناء اليقين .

أمران بيرزان من خلال تسجيل هذه الذكرى :

الأول : هو التطور الذي يحدث للأفكار في مجتمع ؛ وهو أمر متصل بعلم تاريخ الأفكار الذي يستحق منا أن نوليه عناية .

والآخر هو التطور الذي يحدث للمفكر وهو يمضي في رحلة الحياة من مرحلة إلى أخرى ، ويتفاعل مع الظروف المحيطة التي تشهد تحولات ؛ وهو أمر متصل بعلم الانسان .

في حديثنا عن بحث " تحليل نص عن العروبة والإسلام " لأخيينا الكريم سيف الدين عبد الفتاح ، نقف بداية أمام شرحه لوحدات التحليل التي اعتمدها ورآها تشكل مقدمة ضرورية لفهم النص . وهي النص نفسه أولاً ؛ وفكرة الكتاب " العروبة والاسلام " ثانياً ، والمفكر نفسه ثالثاً " بما يمثله من تطور في انساق الفكر ، فلا يمكننا إهمال تلك المساهمات لعصمت سيف الدولة التي شهدت تطوراً وتطويراً في الأفكار ونسبتها ضمن نسقه الفكري " . ووضع الباحث فيما يخص المفكر ، دراسة " العروبة والاسلام " ضمن ظاهرة التحول الفكري التي بدأت تشهد تجليات في وطننا العربي بعد نكسة عام ١٩٦٧ . وشرح الباحث عملية تحليل النص وما تستدعي من رؤى ، وعملية تحليل التحول الفكري التي تتطلب استدعاء كتابات المؤلف الأخرى . واعتبر صدور كتاب **عن العروبة والاسلام** " علامة فاصلة " ، و" بداية " في صياغة مذهبه الاسلامي في القومية ومذهبه القومي في الاسلام " على حد تعبير عصمت سيف الدولة نفسه .

يعتبر سيف الدين عبد الفتاح نص الكتاب " نصاً حضارياً " يعالج قضايا تؤثر في تأصيلها وصياغتها الرؤية حول جملة القضايا التي تسهم في البناء الحضاري . وينبه إلى أن النص الحضاري يجب أن يرى ضمن سياقاته الحضارية (الفكرية والعملية) ، كما يجب أن يحرك

ضمن واقعه الفكري والتاريخي (ذاكرة النص) وإلى واقعا (قراءة التفعيل) . وقد يتطلب تقديم ثلاث قراءات متكاملة للنص ، هي القراءة العالمية والقراءة الجامعة والمقارنة والقراءة الفاعلة المتفاعلة . وقد قدمها الباحث وفق منهج تحليل النص بإتقان طارحاً أنموذجاً في النقد الفكري يوقف أمامه بما يثيره من تفكر . وحرص الباحث على أن يعزز بحثه بذكر مصادر البحث ومراجعته مقرونة بشروح .

حفلت دراسة " تحليل النص " بالعديد من النقاط والأفكار الحيوية . فهي في القراءة العالمية تعرض الخريطة الكلية الإجمالية للنص ، والبناء المفهومي ، والنماذج المفاهيمية في خريطتين لمفهوم الأمة ولمفهوم العلمانية ، وأنساق الحجج وتحليل النص . وهي في القراءة الجامعة تعنى بمدخل دراسة العلاقة بين العروبة والاسلام ، وبالتحولات الفكرية ، وقراءات في نص العروبة والاسلام . وهي في القراءة الفاعلة المتفاعلة تهتم بالقراءة المنهجية للفكر العربي وقضاياها ، وبصناعة برنامج العمل .

إن قارئ بحث "تحليل النص" يخرج بفكرة واضحة عن كتاب عن العروبة والإسلام. وتحتة هذه الفكرة على قراءة النص وتمده بمفاتيح للتعمق في فهمه. وهذا هو دور النقد الفكري. وقد قدم سيف الدين عبد الفتاح في دراسته أنموذجاً لمنهجه فيه يستحق الإشادة به.

أختم بالحديث عن الموضوع نفسه " العروبة والإسلام " ، وكيف تناوله عصمت سيف الدولة وفي الاعتبار البحث المقدم . أوجز بما يناسب المقام طارحاً النقاط التالية :

١- نقف بداية عند استهلال المؤلف كتابه " ببيان " . وهذا البيان الذي جاء في صفحة واحدة يقرر في فقرته الأولى " في الوطن العربي طائفتان أختلفتا فاتفقتا . طائفة تناهض الإسلام بالعروبة، و طائفة تناهض العروبة بالاسلام ، فهما مختلفتان . وتجهل كلتاها العروبة والإسلام كليهما فهما متفقتان " ، وينعى عليهما ما تثيرانه من جدل يكاد يضلل الشباب، ومن تحريضه على معارك نكراء تكاد تلهيه عن معركة تحرير أمته.

والفقرة الثانية تبين أن هذا الكتاب هو حديث إلى الشعب العربي عن الطائفتين تبعاً. وفيها تنبيه إلى مذهب المؤلف الإسلامي في القومية ومذهبه القومي في الإسلام . وهذا الاستهلال "بيان" يذكرنا من جهة بما شاع في أوساط التيار القومي العربي في الستينيات من عناية

بفكرة " البيان " التي ظهرت في أوساط مدارس ثورية في الغرب منذ القرن التاسع عشر ، كما تستدعي إلى خاطر شخصية عصمت سيف الدولة المفعمة بالقوة والحيوية المنادية بالثورة.

٢- نقف ايضاً أمام مخطط الكتاب ومضمونه وأسلوبه " فنلاحظ أن مؤلفه جعله في فصول ثلاثة ، الظالمون والمنافقون والجواب ، وفق منطق الجدل الذي أشتهر به. وقد حفلت هذه الفصول بموضوعات كثيرة تشير إلى عناوين فرعية بلغت في الفصل الأول اثني عشر، وفي الثاني ثمانية عشر، وفي الثالث واحداً وعشرين . ويا له من مضمون غني . وتميز الاسلوب بالسلاسة والوضوح .

٣- يلاحظ قارئ كتاب عن العروبة والإسلام أن عصمت سيف الدولة مؤلفه، وظّف فيه حصيلة رحلة حافلة مع العلم والمعرفة في مختلف الحقول . فهو يتجلى مؤرخاً متمكناً، وعالم اقتصاد، وعالم اجتماع، وعالم دين، ومعنياً بالتاريخ الحضاري بلور رؤية فيه ، وما أكثر الأمثلة على ذلك . ومن خلال ذلك كله يتجلى رحمه الله مفكراً يوظف مختلف العلوم ليولد الأفكار ويبلورها .

٤- تميز عرض موضوعات الكتاب المختلفة بأنه يقدم عصارات في الموضوع هي حصيلة دراسة واسعة وعميقة. وتنداعى إلى خاطر أمثلة على ذلك، ما أورده بشأن الانتماء المتعدد، وشرحه لمصطلح الأمة، وحديثه عن صحيفة المدينة باعتبارها أول دستور، وقراءته للإسلام ثورة وحضارة وقيماً ، ورؤيته للوحدة عربياً وإسلامياً ، وعرضه قصة العلمانية. وأمثلة أخرى كثيرة .

٥- عمد عصمت سيف الدولة في موضوعات بعينها إلى طرح "اجتهادات " فيها تتجاوز المؤلف وتبعث على التأمل. وهذا ما نراه في تناوله موضوع "دولة الخلافة" وكونها أمبراطورية، وأنها لم تكن إسلامية في عصرها، " حيث إن الدولة ضرورة اجتماعية وليس ضرورة إسلامية". وينال هذا الطرح الاجتهادي إعجاب القارئ حتى لو لم يتفق معه كل الاتفاق، مسجلاً فضله في جرأة الطرح وفي الاجتهاد. وهناك موضوعات بلغ المؤلف في معالجتها ذروة ، بحيث تبقى ماثلة في الذهن تطيب العودة إليها . ومثل ذلك حديثه عن معيار

الحلال والحرام في حضارتنا عند ابناء الأمة مسلمين ومسيحيين، وعرض لقصة حياة مسلم من المهدي إلى اللحد في عشر صفحات.

٦- ضمّن عصمت سيف الدولة في كتابه عرضاً لقضايا العصر، وما تعمد إليه الأمبريالية الحضارية من اغتصاب للعقول ، وأساليبها في القهر الدعائي، وقد حفل الفصل الثالث (الجواب) بما يستحق القراءة المتأنية بغية تحقيق الاستجابة ، على تحديات قوى الهيمنة.

رحم الله عصمت سيف الدولة الذي دخل تاريخ أمتنا مفكراً مناظلاً كان له دوره في النهوض . وتبقى ذكراه عطرة تتألق من خلال كتبه ودراساته المفيدة .

أ- عوني فرسخ

يقدم الباحث في الخريطة الكلية الاجمالية العلاقة بين العروبة والاسلام ، استناداً لما ورد في كتاب عصمت سيف الدولة (ص ١٠ وما بعدها) . وتحت عنوان " المنافقون " جاءت جملة " طائفة تناهض الاسلام بالعروبة " من دون ان يكلف الاستاذ الباحث نفسه عناء التحقق من توافق هذين الادعاءين مع حقائق الواقع أم لا ، وتبين إن كان د. سيف الدولة قد استند في إطلاقهما لقراءة موضوعية للفكر والعمل السياسي القومي العربي ، أم أنه صدر عن انفعال تجاه أقوال وممارسات غير مسؤولة تدعي الانتساب للفكر والعمل القومي العربي . وفي حدود اطلاعي على الفكر والعمل القومي العربي استطيع الجزم بأن ليس هناك من ناهض العروبة بالاسلام وأن أعلام الفكر والعمل القومي كانوا دائماً متميزين بمواقف ايجابية تجاه الاسلام الدين والحضارة والقيم ، وان اختلف بعضهم - وليس كلهم - مع بعض الحركات الرافعة شعارات إسلامية ، وذلك بفعل خلافات سياسية ، وليس من منطلقات فكرية معادية للاسلام ، وقد كان الخلاف وليد صراعات منتصف الخمسينيات في ما بين ثورة ٢٣ تموز / يوليو عام ١٩٥٢ والاخوان المسلمين في مصر على وجه التحديد . وفي إيضاح ما أدعيه ألاحظ :

- تأثرت مواقف القوميين مسلمين ومسيحيين من الاسلام الدين والحضارة بثلاثة عوامل : الأول ، الدور التاريخي للاسلام والشريعة في تكوين الأمة العربية وانعكاساته شديدة الوضوح في الثقافة العربية والقيم وأنماط السلوك السائدة في الوطن العربي .

الثاني ، طبيعة القوى التي تصدى لها الحراك القومي العربي منذ نشأته الأولى ، فقوى الاستعمار الأوروبي جاءت مستقوية بالإرساليات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية التي أبدت عداءً شديداً للاسلام والكنائس الشرقية ، وحاولت تهميش اللغة العربية وتبخيس الموروث الحضاري العربي الاسلامي .

الثالث، خوض النخب المسيحية في بلاد الشام صراعات مع قمة الهرم الكنسي - الأجنبية في غالبها - حول امتيازاتها المادية واستخدام اللغة العربية في الطقوس الكنسية. وبتفاعل العوامل الثلاثة أتسمت المواقف القومية العربية بقدر كبير من الإيجابية تجاه الإسلام.

- ليس بين قادة الفكر والعمل القومي العربي من أتخذ موقفاً سلبياً تجاه الإسلام ، وهذا ما انتهى إليه كتاب تحليل مضمون الفكر القومي العربي. ومن بعض ماورد فيه : " قسطنطين زريق في أواخر الثلاثينات يرى أن واجب كل عربي أياً كانت طائفته أن يحيي ويمجد ذكرى محمد، وأن يؤمن بأن مصلحته هي بالدفاع عن الإسلام " .

ويقول: " تحدث ميشيل عفلق موضحاً الصلة بين الدين والقومية العربية، فالإسلام عنده خير مفتح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول... والإسلام بالنسبة للمسيحيين في اعتقاده يعد بمثابة الثقافة القومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم " .

بينما يذهب د. محمد عمارة إلى حد القول : " كانت العروبة أولاً ، ثم اقترب ميشيل عفلق، حتى قال مرة الإسلام أولاً " .

- يقدم جمال عبد الناصر رؤية قومية في منتهى الوعي والإدراك لدور الإسلام في حياة الأمة العربية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، فيقول: " إن الأمة العربية تعتر بتراثها الإسلامي وتعتبره من أعظم مصادر طاقتها النضالية، وهي في تطلعها إلى التقدم ترفض منطق هؤلاء الذين يريدون تصوير روح الإسلام على أنها قيد يشد إلى الماضي، وهي ترى أن روح الإسلام حافز يدفع إلى اقتحام المستقبل على توافق وانسجام كاملين مع مطالب الحرية السياسية والحرية الاجتماعية والحرية الثقافية " . ويؤكد في كلمة استقبله مختار ولد دادة في ١٧/٣/١٩٦٧ " إن الأمة العربية لا ترى أي تعارض بين قوميتها العربية المحددة وتضامنها القبلي والأخوي مع الأمم الإسلامية " . وفي حوار مع خروتشوف ورد قوله " أما عن الدين فأنتم ألقبتم أوزار رجال الكنيسة على الدين ، فكان العيب عيب رجال الدين ولم يكن العيب في الدين. أما عن الجامع فكان مركز الثورة، وكان هو الحصن الذي لجأنا إليه دائماً لصد المستعمر ، وكان رجال الدين - مسلمين ومسيحيين - مجتمعين في الكنيسة وفي المسجد من

دون حساسيات. وأنا نفسي حين حدث العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ خطبت من الأزهر قائلاً:
سنقاتل، فالدين عندنا حصن حصين نلجأ إليه".

- حقاً إن الدين يعتبر أحد مقومات الوجود القومي العربي، في نظر مختلف الحركات القومية العربية، و لم يأت ذلك حرصاً على وحدة النسيج الوطني القومي الذي يضم عرباً غير مسلمين، على الرغم من أهمية ذلك الحرص وضرورته ، وإنما نتيجة وعي التجربة الإنسانية بعامة وتجربة المسلمين بخاصة من ناحية، وادراك دور الإسلام في منح العرب الطاقة الروحية لتعريب بقية نواحي الوطن العربي خارج الجزيرة ، وبذلك كان العامل الأول في تكوين العرب القومي بعد الفتح على أساس الانتماء الحضاري وليس الانتساب السلافي. والإسلام هو الذي أغنى اللغة والثقافة العربيتين وحماهما خلال قرون الانحطاط السياسي العربي. فهو بالتالي أكبر من مقومات الوجود القومي العربي وأجل قدراً ، ولا يجوز منطقياً أن يعد واحداً منها، والأكثر تعبيراً عن الحقائق الموضوعية في هذا الجزء من العالم . لا تعتبر الأدبيات القومية العربية الإسلام أحد مقومات الوجود القومي العربي، من دون أن يعني ذلك مطلقاً موقفاً علمانياً معادياً للدين بعامة والإسلام بخاصة.

- لم تشكل العلمانية أحد مفاهيم الفكر القومي العربي منذ نشأته الأولى، وإن رفض على نحو قاطع ومنذ البداية أيضاً فكرة الدولة الدينية، وأكد بجلاء ووضوح أن تكون الدولة القومية مدنية الطابع. وحيثما ورد مصطلح العلمانية في أدبيات القوميين، فالثابت أنه لم يرد مطلقاً للدلالة على معاداة الدين، وإنما بهدف تحرير الدين من استغلال القوى المستبدة المحلية والاستعمارية على السواء، وتعبيراً عن اعتماد مواقف عقلانية وآراء صادرة عن اجتهاد بشري في ما يخص حياة الناس في دنياهم وقضايا معاشهم من ناحية ثانية.

- لا يقصد بالدعوة للوحدة العربية مواجهة الدعوة الإسلامية، كما يتصور خطأ أصحاب هذه الدعوة، وإنما هي في جميع الأدبيات القومية رداً على واقع التجزئة، وباعتبار الوحدة القومية السبيل الذي لا سبيل سواه لنهوض الأمة العربية ومواكبتها العصر.

هذه أبرز الملاحظات التي تؤكد صحة ما أدعيه حول عدم صحة ادعاءي الصديق الراحل د. عصمت سيف الدولة للذين تعامل معهما الأستاذ الدكتور سيف الدين عبد الفتاح وكأنهما

بديهيتان لا تناقشان. مع أنهما يفتقران تماماً لكل سند في أدبيات القوميين وممارساتهم منذ عهد عبد الغني العريسي وشباب جمعيتي "العهد" و"العربية الفتاة" مطلع القرن العشرين إلى ما بعد عبد الناصر والميثاق وحتى لحظة دفع د. عصمت سيف الدولة كتابه القيم للمطبعة، وكتابة د. سيف الدين عبد الفتاح تحليله العلمي لكتاب الراحل الكبير. مع التأكيد بأن هذا التنفيذ لادعاء وجود طائفة تناهض الإسلام بالعروبة وللإيحاء بأن الفكر والعمل القومي كان في بعض جوانبه علمانياً معادياً للدين والإسلام بالذات، لا ينفي مطلقاً تقديري الكبير للدور الذي أداه كتاب د. عصمت سيف الدولة بالرد الموضوعي على من كانوا - وما زالوا - يناهضون العروبة بالاسلام، إذ ربما قدم في هذا السياق ما لم يسبقه أو يضاهيه أي مفكر قومي عربي في حدود ما أعلم.

٢- عصام العريان

تعيش الأفكار بقدر ما تحدثه من آثار في حياة الناس، لذلك فإن المحطة الأخيرة في الحياة الفكرية للدكتور عصمت سيف الدولة كانت لها آثارها الهامة. ولقد ساهم - وهو المفكر القومي البارز - في إزالة التناقض بين القومية العربية والإسلام.

كان من نتيجة هذا الجهد الفكري إضافة إلى جهود أخرى لا بد من الإشادة بها، أن حدث اللقاء القومي الإسلامي.

لقد مرت العلاقة بين العروبة والإسلام بمراحل متعددة:

أولاً: التنافس الذي أذنته التدخلات الخارجية (أثناء مرحلة النهضة) بين فكرة الجامعة الإسلامية وفكرة القومية العربية.

ثانياً: إزالة التناقض والتعاون في مرحلة التحرير الوطني.

ثالثاً: الصدام الواضح نتيجة الانفراد بالسلطة.

رابعاً: التعايش الذي يتم الآن.

فهل يمكن أن نشهد مرحلة جديدة يكون فيها التعاون التام والتنسيق من أجل مواجهة المشروع الصهيوني وتحقيق بناء القوة الذاتية العربية الإسلامية في المجالين السياسي والاقتصادي، ولا نغفل المجال الثقافي الفكري أو المجال الاجتماعي؟

٣- حبيب عيسى

ورد في المناقشات حديث عن التحول في فكر الدكتور عصمت سيف الدولة بين الستينيات والثمانينيات. وحقيقة الأمر أن كتاب **عن العروبة والإسلام** كان في السياق ذاته الذي بدأ فيه د. عصمت سيف الدولة مسيرته الفكرية في الستينيات. فكتاب أسس الاشتراكية العربية الذي صدر عام ١٩٦٥ وعلى رغم أنه كتاب عن الاشتراكية ، فإن الإسلام لم يكن غائباً عنه وإنما كان في صلبه، من خلال الحديث عن الإسلام الذي بنى الأمة العربية، ثم في **نظرية الثورة العربية**. ورغم أن الكتاب ليس عن الإسلام فإن الإسلام لم يكن غائباً ، فهناك جزء عن الإسلام فيه.

وعندما بدأ البعض تعميق التعارض بين العروبة والإسلام جاء كتاب **عن العروبة والإسلام** في سياقه العام واستناداً إلى المنهج ذاته الذي جاء في الكتاب الأول في الستينيات.